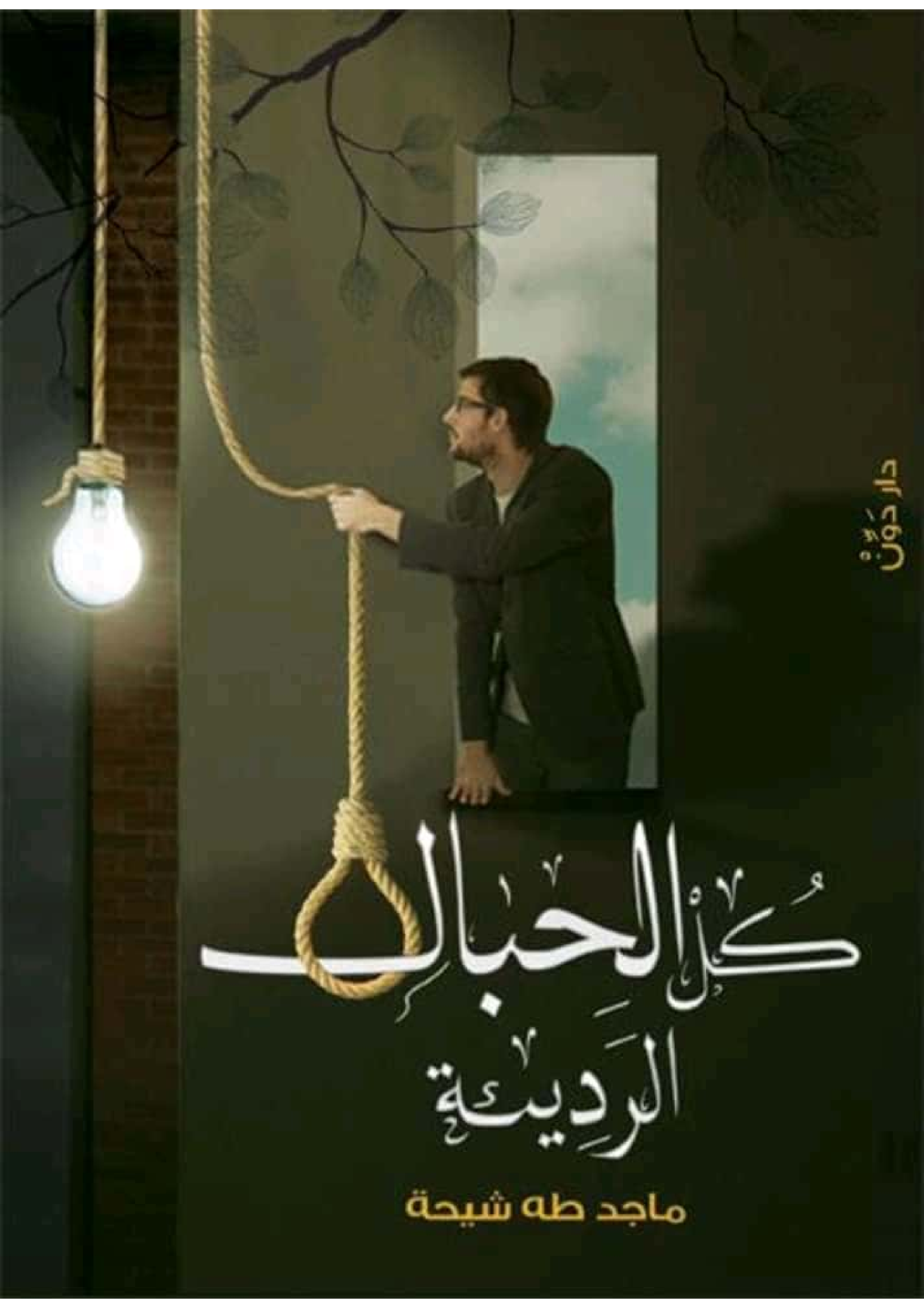
كل الحبال
الرديئة
ماجد طه شيحة
دار دوّن

# كل الحبال الرديئة

مجموعة قصصية

ماجد طه شيحة

# كل الحبال الرديئة

أنا الناجي الوحيد ولا فخر، عن نفسي أحكي. أنا إنسان الكدمات ولكني لست بميت. أنا خيال المآتة يا عروس الشمع المتقن الصنع، لم تنطبع على رأسي نقرات العصافير الجريئة، ولم يفزعني جذبها لحشو القش من بطني، ولا قرض الفئران لثوبي، ولا أذابتني الشمس كما أذابتك. أتيت وذهبت وصُلت وجُلت كثيرًا وعندما اشتدَّت الشمس حملوك إلى الظل الظليل خوفًا عليك. أنت صاحب المعجزات وأنا الكافر الوحيد

بها. ها أنا ذا أحكي عن نفسي، ولكنك ستجد ألف فم يحكي عن بطولاتك الزائفة!

أنا الذي قتلتك يا أخي. وأَعلمُ أنَّ من خلفك مطالبين بالثأر، ولكنهم كذبة. لا أحد منهم فقدك كما افتقدتُك. لا أحد منهم عاش معك كما عشت. أكلنا من ذات الطبق، تخبطتْ ملاعقنا في قعره الخالي ولم نزل جوعى، ولكنَّا لم نشكُ الجوع! تبادلنا البحث عن قطع اللحم الصغيرة وسط كومة الأرز، ولم يستأثر أحدنا بنصيب الآخر حتى لو وجد ألف مرة بعد مرة. لم تجعل لي أمي طبقًا أكبر من طبقك، ولم أغلبك باتساع فمي ولا شهوتي المشروعة للطعام. فلما صار لنا طبقان.. حثا الترابَ كلانا في طبق الآخر، وشكونا الجوع للمارة في الطرقات! تقاسمنا سريرًا واحدًا، وغطاءً واحدًا، ودفئًا واحدًا، وكدنا أن نتقاسم الأحلام! ولما صار لكل واحد منا بيتٌ.. خاف كلانا من تلصُّص الثاني على زوجته! وسددنا الشبابيك، واختنقنا بالبطولات الزائفة والعداوات الهشة. كانت لنا أم واحدة تخدمنا، أم

ملغمة بالمرض وذراعين عليلتين. فكنا نتقاسم نشر الغسيل وجمعه، وسُقي الداجن وعلفه، وكنت أغفر لك تكاسلك وإهمالك لدورك؛ لأن الوحيد الذي كان يضحكها كان أنت، الوحيد الذي لا تشعر بوخز إبرته في حقن الأنسولين كان أنت. فلما ماتت وصار لكل واحد منا زوجة.. حبسنا زوجتانا عن أبينا -الضعيفة عظامه- عنادًا. تركنا العناكب تعشش في سقفه، والطحالب تتعفن على بقايا خبزه، وتركناه يموت وحيدًا. ثم لم نبكِ عليه بقدر ما تبادلنا الاتهامات الموجعة! فلا يهمني بعد ذلك لو سمينا كل أبنائنا باسمَيْهما، أو حشونا أفواهنا بكل أحاديث البر.. طالما لم يسمعاها منا في الحياة.

وغفرتُ لك، كل شيء غفرتُه لك؛ فالحرب بيننا سجال. الذي لم أغفره: أن يعلو صوتك فوق صوتي، أن تكون المصيب دائمًا وأنا المخطئ، أن تكون المشعَّ وأنا المنطفئ، وأن أدور في فلكك.

سممتَ حياتي حيًا وميتًا! مَن منًا قتل أمه -قلقًا- في تأخره خارج البيت؟!، ومَن منًا عاد مبكرا ليحاكي صوت اخيه الآخر وحركته في غرفته فيهدأ قلق امه. مَن منًا عاش حياته كاملة بكل مخاطرها وحلاوتها؟! ومَن منًا حمل أبويه كزجاج هشٍ على طول الطريق؟ كنتُ أنا العاقل مجبرًا، وانت المغامر مخيَّرًا. حافظتُ على ثبات الأرض تحتك، وأشعلتَ أنت النار تحت قدمي. حافظتُ على سقفك من ماء المطر في غياباتك الكثيرة، ووقفتُ خلف بابك أُخفِّف من خوف أولادك وزوجتك، ولم أدخل حتى لا تتهمني بالخيانة، فلا يهمني بعد ذلك إن عشت في رغد عمري كله نتاج مغامراتك، طالما رأيت الفزع في عيون أولادي للحظة واحدة، وأغلقت على نفسي بابي وتسلَّحت بالعصا وخفت العسكر واللصوص والقتلة ولم أنم.

ثم لم تكتفِ، كنتَ تعشق التصفيق، لا تريد لجمهورك أن تبرد أكفُّهم، لم تتوقف رغم كل توسلاتي، صنعتَ من لا شيء كل شيء، وصار لك أتباع وسحرة

يتهموني بالجنون ويسفهونني وتدفعهم عني ضاحكًا: "هذا أخي". ولا تعلم أن حكمتك توجعني أكثر من تسفيههم! أنا الحكيم. أنا الباقي. أنا ملح الأرض يا أغبياء. أنا التبن في جدران بيوتكم الطينية. أنا التحت وأنا الفوق وأنا ما يحيط بكم. أنا من وضعت اللقمة بأفواهكم في السنوات العجاف ولم أنتظر الشكر. أنا طعم اللعاب في أفواهكم؛ لذا لم تشعروا لي بطعم. أنا كل الأيام في تاريخكم التي مرت ولم تعيروها انتباهًا؛ فقط لأنها مرت بسلام! وهو... هو؟ تمثال الشمع الذي لن يصمد لشمس.. ظاهرة صوتية. فرقعة طائرة مارة في السماء لن تهبط على أراضيكم ولن تسمع لشكواكم. ولكن من أنتم حتى تفهموني؟! أصوات تصفيقكم تطغي على أصوات عقولكم. وغبار أحذيتكم المهرولة خلفه تشوّش الرؤية عليكم. ولن تسمعوني حتى يخفت صوته. يا أخي. لا يهمني كل المؤتمرات والتحالفات والاعتذارات. فأنت عدوّي إلى النهاية. ولا بد لأحدنا أن يموت.

أنا قابيل يا أخي. شكوتك إلى السلطان فكانت جائزته أن أحل دمك لي. أنا قابيل يا أخي. قتلتك ولم أُحسن القِتلة. لففتُ الحبل حول عنقك، ولم أختر حتى حبلًا متينا ليقتلك من المرة الأولى. فحملتُ إثم قتلك وإثم تعذيبك! قتلتك ليس فقط -كما سيقولون- لكل ما أخذت، ولكن أيضًا لما يمكن أن تأخذه مني بعد ذلك. أنا قابيل يا أخي، صنعتُ كل الحبال الرديئة ولففتها حول عنقك حبلًا حبلًا، ولم أدرِ بعد ذلك ما أفعله سوى أن أصرخ في الفضاء عجزًا ألا أكون مثل الغراب! لم أُوارِ جثتك كما يجب. لم أُربِّ أولادك بعدك، ولا أولادي. وتركت امرأتك تتسول بثدييها، وكذلك امرأتي. وكل ما أغضبني.. أنك شكوت من رداءة حبالي

# صاحب طريق

السؤال الذي ظَلَّ يراودني كل هذا الوقت، ويجري مني كما الشيطان في مجرى الدم، يطفو إلى سطح لساني من عمق سريرتي فأجدني ألهج به مع أذكار المساء والصباح سواء بسواء. سؤال مقلق، ملحٌّ كالوسواس، مزعج كحصاة في حذائي، مثل قرصة مؤلمة في أبعد مكان من ظهرك: كيف فقدتَ الطريق؟.

هل فقدته ذلك اليوم عن بينة، مفتوح العينين؟ أم أنك تعمدتَ أن تستمر في السير رغم أنه لم تكن معك علامة واحدة صحيحة؟ أظننتَ أني لم أنتبه لذلك؟ ظللت تتعلَّل بكل شيء حولنا على سلامة الطريق: اتجاه الشمس الغاربة، الأشجار من حولنا.

البيوت البعيدة التي خلت من معالم الحياة... ونسيتَ أنك سبق وأخبرتني أن كل ما حولنا فوضى، وألّا أعتمد إلا على حدسي. أنت من علمني ذلك... هل تذكر؟ في غرفتك المعروشة بالقش، المرصوصة الجوانب بالكتب، في الدور الأخير قبل سقف العالم كما اعتدت أن تصفها.

ولكن لِمَ تركتني وكنت أفخر دائما بأنك أنت عاصمتي الوحيدة من كل العواصم! وكنتَ تعلم أكثر من غيرك أنهم مطلقو السراح. أخرجوهم من السجون وقالوا لهم: "انطلقوا": قالوها رصاصًا تحت الأقدام لا كلامًا على الشفاه! والرصاصات المتبقية كانت لأعجزهم وأكثرهم ترددا: لتكتمل تمثيلية الهروب وليصبح البطش للأقوى. ثم أغلقوا الأبواب ذات القضبان من خلفهم على أنفسهم، بينما تحول كل الفضاء الشاسع إلى سجن كبير مليء بالقتلة والمجرمين. ما الفائدة أن يكون القاتل الأنعم يدًا خلف القضبان، بينما يشمّم كلابَه قطعةً من ملابسي ويطلقها خلفي؟

في تلك الأيام مارسنا أنواعا شتى من الظن، كما كنا في القديم نتمرّن على أنواعا شتى من اليقين. ولم تثبت كل أنواع اليقين لنوع واحد من الظن! هل أخبرك؟ في تلك اللحظة الفاصلة بين الظن واليقين، بعدما تركتني، توقعتُ أن تخرج لي من خلف أعواد الغاب، أو تظهر من خلف شجرة، أو تنبعث من فضاء الطريق... وعلى وجهك تلك الابتسامة التي ألفتها؛ ابتسامة المعتب لطالبه الذي أوشك على الوقوع في الشبهات. وعندما بدأتُ أدرك. ليس دفعة واحدة، بل كما ينتشر السم في الجسد، وكما بدأ حبر الظلام ينتشر في ماء السماء حاملا معه عشرات الاحتمالات ومشاريع صغيرة عديدة للخوف. ولا تسألني: "كيف عدت؟"، تخدع نفسك قبلي إذا حاولت أن تقنعني أنك فكرت فيَّ لحظة وأنت تنطلق في ذلك اليوم في طريقك، تاركا إياي _لأول مرة_ أرتجل، في أشد الأوقات التي احتجت فيها أن أتَّبع!

ولطالما اتبعتك. ألم تكن أنت من علمني: "ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"؟ أن نلزم بيوتنا في زمن الهرج؟ وأن أكسر سيفي وأحني رأسي لأول سيف يلمع عاليًا؟ ثم لم تفعل: فتحتَ بابك. وشحذت سيفك. وحددت بصرك مشتاقا للون الدم! ألم يكن أنت من علمني أن خير مال المؤمن في زمن الفتن: غنم يتتبع بها العشب في شعف الجبال؟ فَلِمَ إذن ساومتَ عليَّ بغلة القاضي المعطرة وفرس السلطان المسرجة بالذهب؟

وعلمتُ أنك أنت أنت! الذي أسمع عنه. أم أنني لم أكن أنا عندما سمعت عنك؟ أو لم أكن ما ينبغي عليَّ أن أكونه؟ لم تدركني طفرةٌ كطفرتك. فأصعد في سلم الحياة كما صعدت. أم أن كلانا ترك ثيابه الأولى _غلافه القديم_ في ذلك اليوم على الطريق؟ تماما كما تترك الحشرات أغلفتها الكيتينية عندما تضيق بها لتنطلق إلى أبعاد أرحب من ذي قبل؟

ولقد أيدتك وصفقت لك. ألم تسمع تصفيقي؟ ألم ترَ يدي تشير إلى اسمك في كل مرحلة من مراحل

صعودك؟ وانطويتُ أنا على جُرح الخديعة حتى التئم، التئم مفتوحا لأنه ما كان له أن يلتئم!

ولعلي أجد الإجابة... أجترُّ تفاصيل اليوم الأخير. أيُّنا كان الأسبق لبيت صاحبه في أول ما أفقنا من توابع الصدمة الأولى؟ انطلقتْ كلابُهم وها هي في الطريق إلينا. كنا في الأطراف، ولكن متى استُثنيت الأطراف من الشظايا القاتلة؟ تعاهدنا يدًا بيد على الحراسة. ألم نتعاهد؟ وجعلوني معك لأننا لا نصلح إلا معا؟ وانطلقنا، دورة كاملة لنفتش في مظان اختبائهم بين الزراعات البعيدة: منتظرين قدوم الليل. انجرفنا في حلاوة الحديث وتركنا أقدامنا تسوقنا، والليل يهبط. تذكر أني سألتك يومها: هل تكفي العصا؟ فأجبتني: "تكفي للأسر لا للقتل". كنا نمشي سويًا ثم تركتني، اختفيت ولم تعد. فهل استدعوك خفية؟ أم كنت تعلم قبلها فجئت بي لهذا المكان لتشرح لي أعذارك التي تعلم قبلي أني لن أصدقها؟ وعندما ذهبتَ أنت كما أخبرتني تتحسس الطريق، وأدركتُ أنك لن تعود أبدًا.. كنتُ

أوشك أن أسمع صوتك يجيب على كل اتهاماتي. ألم أترك لك على الطريق من خلفي علامات وإشارات؟ ألم أفعل؟ بلى. فعلتُ، وعن عمد تركتها، عن عمد سلكت الطريق الأخرى، وكنت أعلم جيدًا أني لن أراك في نهايتها، وانطويت على جرح الخيانة حتى التئم. أغلقت باب بيتي، وبكيت على خطيئتي، وكسرت سيفي ولم أشحذه، وانحنيت برأسي، وتقنعت بردائي، وانتظرت أن يهوي السيف على عنقي... ولم أندم! لن أندم! ألم يكن أنت من أرسل لي قولك؟

- بعد ما سمعت ورأيت؟ ولو استقبلت من أمرك ما استدبرت أكنت تأتي خلفي في ذلك اليوم؟

ولم أتردد في إرسال الرد إليك

- لا

لم أتردد.

# الحوض

والحوض ليس حوض مطبخ ولا حوضًا لغسل الوجه، فهو يمارس العملين في بيتنا منذ الأزل برضا تام ودون شكوى. مصنوعًا من الإستانلس، وفوقه خلاط المياه الذي لم أكن أطوله في البداية، وكانت إحدى محابسه ساخنة باستمرار في الشتاء، الفترة الصباحية هي أكثر فتراتها سخونة، الحلقة البلاستيكية الحمراء المغروسة في وجه المحبس الساخن ظلت تسقط ويعاد تثبيتها حتى ضاعت. لسنوات قليلة، استمر الماء الساخن كل صباح، ثم أصبح المحبسان يعطيان ماءً باردًا. وبعد ذلك الوقت بدأ الحوض رحلة تدهوره... موازيًا لمرض أبي، وسقوطنا أسفل خط الفقر: إذ أصبحت الأشياء تفسد ولا يُعاد إصلاحها.

الرواسب التي تسد المصفاة، فيمتلئ الحوض بسرسوب الماء -الذي يدل على أن الخلاط فقد ديناميكيته- بادئًا بقطرات من الماء سرعان ما تحولت إلى خيط مستمر، يتجعد عند نهايته نتيجة لقوة صد سطح الماء المتراكم. وفي العمق كنت تلاحظ تأثير هذا الخيط بعد اختفائه متمثلًا في هيجان التفافي لحشد الرواسب (حبات الأرز المطبوخة، تفل الشاي، طفو ارتعاشي لشوارب صَرْصار ميت، قطع الدم المتجلطة المتبقية من ذبيحة اليوم...)، صغيرة كأفراخ الضفادع، متأرجحة لأعلى وأسفل في تلك الدوامة كأراجوزات، ومشفوطة نحو مركز الدوامة كما لو كانت تريد أن تنقر خيط الماء الوهمي) لقد بهرتني تلك الاستعراضات المائية سنوات من عمري.

بدأ وانتهى -ذات ظهيرة- مشروع إصلاح خلاط المياه من أول محاولة لأبي، فكَّ اليد، ووضع إصبعه، وحشر جلدة بلاستيكية، ونفخ حتى سمعنا صوت البقللة بالمواسير الخارجية واضحًا، ثم نظَّف و أعاد كل

شيء إلى مكانه، ولكن سُمك خيط الماء لم يتغير، وظل والدي يشكو من صوت فقاقيع صابون في أذنه لمدة أسبوعين.

كنا قد بدأنا استخدام الخلاط كـ"إريال": بتوصيله بسلك موصَّل بمكان "الإريال" المكسور بالتلفزيون. وبهذه الطريقة أصبحت معظم أوقاتنا نقضيها في المطبخ، وعلى الرغم من المساوئ (وجود التلفزيون في محيط ثابت تبعًا لطول السلك، تحريم لمس الخلاط أو العمل على الحوض أو حتى التقاط ملعقة من فوقه؛ لأن أي حركة بجوار الحوض كانت تغير شيئًا من معادلات الاتزان اللازمة لبقاء الصورة صافية بلا شوشرة). وكان الانفجار المستاء للجالسين كافيًا لتفعلها مرة واحدة فقط. وفي تلك اللحظات كل ما تريده هو تهدئة الموقف، وذلك بإمساك السلك، ورفعه، وتحريكه في شتى الاتجاهات، حتى تختفي الشوشرة. وخلال هذا الفعل لا تكف إشارات التوجيه "بس. بااس على كده. لغوش تاني". وفي الحال عندما تُنزِل

يدك تكتشف الخدعة: أن حرارة يدك ومغناطيسيتها هي التي ضبطت الصورة، وتعود للمحاولة من جديد.

أخي الكبير كان يختار أشد الفترات سخونة بالمسلسل اليومي لعمل كوب شاي لنفسه. كوب الشاي الذي كان أداة عقابنا اليومية، بداية من العمليات التجهيزية: غسل الكوب، وملء البراد. حيث تبدأ سلسلة من التجعدات في التراقص على الشاشة تبعاً لحماس أخي في العمل. نهاية بخبط الكوب والملعقة بالحوض، مما يتسبب في انشفاط مفاجئ للصورة في العمق "الفلورسنتي" للشاشة، ثم عودتها. أما متعة أخي كانت ممتصة بالكامل من حرق أعصابنا أثناء مراقبتنا لحركته البندولية، من البوتاجاز إلى الحوض، مارًّا بالسلك من فوق رأسه، ثم فجأة تصطدم رأسه بالسلك متعمدًا أو مصادفة، كان أبي يعتقد أنه يقف على أطراف أصابعه خصيصًا ليقوم بهذه الحركة. لتنفجر الفوضى كسرب من الياي المرح، ويبدأ مع تأرجح السلك صوت شبيه بعاصفة بحرية -اصطدام

ملايين من حبات الرمال المحمولة بالمياه الصاخبة- ليُكمل السلك تأرجحه إلى الجانب الآخر، وتعود الصورة صافية كما كانت، والصوت كما هو. ولأن أي محاولة لإيقاف السلك والعاصفة تزيد الطين بله.. نظل جالسين نتابع نصف المسلسل ونصف العاصفة البحرية، بينما نحشو الفجوات بخيالنا. أما عن الأجزاء التي لم نسمعها.. فكانت تمثل لنا ذلًّا خاصًّا، حيث إن الناس الطبيعيين بالخارج لديهم تلك الأجزاء.

فك تلك الطلاسم يبدأ على العشاء كل يوم؛ حيث إن أمي تأخذ في تكملتها مع أختي بالنهار. ومع مرور الوقت كانت الصورة تصبح أكثر حساسية، حتى لمجرد فتح أحد الجيران لصنبور المياه عنده. جربنا توصيل السلك بكل شيء عدا الحوض، ولكن يبدو أن انسجامًا ما قد حدث بينهما.

هذا الشغف غير المبرر لمتابعة المسلسل -مع الصعوبات- جعل المسافة بيننا وبين التلفزيون تتضاءل مع الوقت، العادة التي لم ينصحنا أحد بتركها. ثم بدأ

اكتشاف الأمر ذات مرة عندما هششت تفل الشاي على أنه ذبابة. ثم بدأت الصعوبات في المدرسة. وكنت أتَّخذ تكنيكًا خاصًا بتضييق العين حتى تتركز الرؤية في شريط ضيق. وسرعان ما أصبح هذا الشريط غير كاف للرؤية... وكنت أول إخوتي لبسًا للنظارات. أصبحنا نتبادل النظارات بانحدار -كما نتبادل الملابس والأحذية والكتب المدرسية. حيث يتم تفريغ "الشنبر" من الزجاج الطبِّي السابق. وملؤه حسب الكشف الجديد للأخ الأصغر. وكان الفارق في حجم الوجه يصنع مع مرور الوقت احتقانًا طحلبيَّ اللون على كلا الصدغين لذي الوجه العريض منا.

في كل مرة كنت أنزل فيها إلى البلد بعد غياب أسبوعين.. كانت سعادتي وشوقي وكل كدماتي الصغيرة تتبخر بمجرد رؤيتي لـ"غرفة الجلوس" كما نسميها. الحوض والتلفزيون. عيدان الكبريت المشتعلة حتى نصفها الملقاة على الأرض. مع مهرجان فوضوي من الماء

في قاع الحوض الذي لم تعد تبهرني استعراضاته بقدر ما تنفث الغم في صدري.

وعندما كنت أستيقظ ليلًا لأميِّز بصعوبة أنني في بيتنا ولست في المدينة الجامعية: حيث لا صوت للطلبة المتأخرين في الممرات بالخارج. وعندها.. تبدأ في ذهني عملية إعادة الترتيب، ليتقلص حجم الغرفة، ويتزحزح الباب خلف رأسي بدلًا من الجانب الأيمن عند قدمي، وتتبخر الدواليب المشتركة، وأفقد التشعب الثلاثي للتنفس إلى تنفسي الخاص، وأبدأ في الإحساس بصلابة الأشياء من حولي. وكنت أجد صعوبة بعدها في العودة للنوم: لأن ضخَّ الوقت -بعيدًا عني- خارج بيتنا.. أكثرُ كثافة وأكثر ثقلًا، يلسع قلبي، ويملؤني بأبخرة الوحشة. حيث أتمنى اللحاق بذلك التدفق: لأصنع مستقبلي، ليكون بعيدًا عن بيتنا، في بيت به حوض للمطبخ وحوض للوجه، وأصائص زرع، وأدراج خالية من النمل الميت، والأغلفة الكيتينية المفرغة لصراصيرَ ماتت من

وقت بعيد... كنت مستعدًا للهروب بعيدًا، كمسامير سفينة السندباد عند جبل المغناطيس.

# الذي يتصل...

لم يكن رقمًا مسجلًا عندي، فَلمْ أرد عليه إلا بعد المرة الثانية. جاءني صوته.. ضعيفًا كان، ملهوفًا، متعجلًا، وهامسًا كأنه يخشى أن يسمعه أحد. شيء في صوته ذكرني بأخي الذي دفناه الصيف الماضي، بعد إصابته بالفشل الكلوي.

– أنت صلاح؟

لم يكن اسمي. فتَّشت في ذاكرتي سريعًا، لم يكن اسم أحد أعرفه من قريب أو بعيد. لم يخف عني خيبة أمله عندما أخبرته أن "النمرة غلط"، وأغلق الخط. في المرة الثانية لم يسأل عن الاسم، قال لي مباشرة أنهم في المكتب أعطوه هذا الرقم وقالوا إنه لصلاح، وأنه تأكد من الرقم للمرة الثانية من المكتب، و"كفاية هزار،

الوضع حرج، أعطني صلاح لو سمحت". هذه المرة أغلقت أنا الخط، ولكن رقمه ظل يرصع شاشة التليفون مرة بعد مرة... حتى يئس من الرد.

لسبب لا أفهمه، ظل الصوت ملتصقًا بأذني بقية النهار، ربما كان أحدًا أعرفه. بعد العشاء مررت على المحل الذي اشتريت منه الخط، كنت متأكدًا من أنني أنا الذي فضضت الشريحة من غلافها البلاستيكي، قال البائع:

– الخط خطك يا سعادة البيه، نحن لا نبيع خطوط مستعملة أو مسروقة.

صحيح: الرقم مميز، وسهل الحفظ مثل أغاني الأطفال، ولن يفرط فيه أحد بسهولة لمجرد أن يسرق منه. قبل أن أنام قمت بتحويل التليفون إلى الوضع الصامت، ودفنته تحت المخدة. في الصباح ظهرت لي حكمة تصرفي، كان مسجلًا على الشاشة عددٌ كبيرٌ من المكالمات الفائتة، كلها منه.

وأنا على الحوض أغسل وجهي سمعت التليفون يرن، كان رقمًا آخر غير مسجل عندي. فتحت الخط من الرنات الأولى، ملئ الفم بالشتائم، صوت البحر والريح بعثرا الكلمات التي قالها.

– تعرف مكاني الآن، ماذا أفعل؟

الصوت هذه المرة كان مفعمًا بالحيرة، انطلق دون أن ينتظر ردي:

– إنني أراهم كل يوم من نافذتي، وأرى قواربهم، وأحيانًا يتجولون على الشاطئ. لا بد أنهم يعرفونني الآن، ولكن ينتظرون التأكيد.

صِحتُ أقاطعه:

– من تريد؟

فوجئ بالسؤال. مكث قليلًا غير قادر على الفهم.

– ألستَ صلاح؟

صِحتُ ألعن سنسفيل أجداده، وأغلقت الخط.

أهي لعبة؟ لا بد أنهم يهزؤون بي. لم تتوقف الأرقام الغريبة عن الاتصال بي طيلة الوقت وعلى مدى الأيام التالية، دون مراعاة لنوم أو طعام. ينفجر الصوت على الطرف الآخر: "أنت صلاح؟" فكرت أن أغلق التليفون، ولكن ما الذي سأخسره؟ لاحظت أن الصوت الأول لم يعد يتصل، وكذلك كل الأصوات الجديدة لم تستمر ليومين، مثل خط عادم الطائرة النفاثة؛ حيث يستمر بعدها في السماء للحظات، ثم يختفي. لاحظت شيئًا آخر: أن خلفية الأصوات تختلف (صوت البحر، قطار يتحرك، منشار ميكانيكي لقطع الخشب...). إنهم موزعون في أماكن مختلفة: لذلك ربما يكونوا غير متواطئين، ولكن صوتًا واحدًا ظل معي لأيام، كنقطة ماء عاقلة في هذا البحر من الجنون، بخلفية ساكنة كأنه يجلس في بيت، يسأل عن صحتي أولًا، ويسميني كما يسمونني: "صلاح". له طريقة في قول ذلك لا تُرد، أتحرج، ثم يستطرد، يسألني ويجيب

بنفسه، هكذا طوال المكالمة... وكان يعرف أن آخرين يتصلون بي مثله.

- هذه أول مرة تسمع فيها أصواتنا، لا بد أننا نسبب لك الإزعاج، اطمئن ستتعود سريعًا، ولكن يجب ألا تستسلم لحياتك العادية.

- وهل ينبغي أن أتعود عليها؟ أصواتكم ومكالماتكم.

- يجب أن تعرفها جميعًا، وتميِّزها من بعضها، ورغم أننا في نفس المكان، صلاح فقط يعرف أصواتنا، ونحن فيما بيننا لا نعرفها.

- إذن لست أنا صلاح.

- افهم. صلاح مات، كما مات صلاح الذي قبله، قتلوه. صلاح ليس اسمًا، إنه الاسم الذي ينبغي أن تكون عليه، ولحماية اسمك الحقيقي. لستَ الأول، ولن تكون الأخير...

- ...

- أتفَهَّم حيرتك. كلهم اندهشوا في البداية، ولكن سرعان ما يتأقلمون مع الوضع.

كان يقطع المكالمة دائمًا دونما استئذان، كأنَّ أحدًا فاجأه. الساعات التالية التي أنتظر فيها مكالمته -التي لا أعرف ميعادها- أمور بالأسئلة. أصدقاؤه لا يتركوني طويلًا. صرت أحمل معي بطارية احتياطًا بعد أول مرة نفذ فيها الشحن، في الباص، في العمل، وأنا أسير في الشارع... تنتفض الشاشة برقم "أنت صلاح". لم أعد أجيبهم، فقط أتنصَّت على الأصوات من الجانب الآخر. تُرى ماذا يفعلون؟ من هم؟ ما الشيء الذي يربطني بهم؟ ولكن الصوت الدائم لا يتركني في حيرتي، ليضيف ألغازًا جديدة:

- اسمع، لا تحاول أن تهرب. طالما أنك حي.. فالمكتب لن يعطينا رقمًا آخر. سنضيع بدونك، سنقع في المصيدة.

أسأله بدافع الفضول:

- ما الذي ينبغي أن أفعله؟

- المفروض أن تخبرنا أنت عما سنفعله، لا أن نخبرك عما ستفعله. ولكني سأساعدك على التذكر. هناك قواعد مشتركة بيننا، نحن نتحرك معظم الوقت حسب ما يتراءى لنا، وغالبًا ما نكون على الطريق الصحيح، وعندما تحدث الفوضى.. نتوقف عن الحركة، الفوضى التي قد لا تحدث في العمر إلا مرة واحدة، وعندئذ يأتي دورك. القاعدة الأولى: نحن نتصل بك لا أنت، مهما حدث، قد يبدو لك الدور غير مهم، فنحن نستطيع أن نتحرك بدونك وقتًا طويلًا، ونفعل أشياء يتحدث عنها العالم. ولكنك في الخلفية دائمًا، مثل المسمار الأخير في السفينة، لا يمكن أن تخذلنا.

- وهل لم يسبق لمن هم مثلي خذلانكم؟

- يحدث في بعض الأوقات. الأسباب تكون غير مفهومة، ولكنه يحدث. وعندئذ تكون النتيجة مُفجِعة.

- هل يموت أحد؟

- الموت بالنسبة إلينا نهاية عادية؛ نحن نتعامل مع أرواحنا مثل غني وقعت منه لقمة طعام، لا نكلف

أنفسنا عناء الانحناء لالتقاطها. ولكن المشكلة عندما نقع في أيديهم.. أننا نقع كلنا دفعة واحدة، مثل قطع الدومينو المتراصة، إذا سقط أحدها.. سقطت كلها. نحن نتعلم أساليبهم، ونتدرب عليها طويلًا، ولكننا نقع بأعين مفتوحة.

- وهل هناك أشد من الموت؟

- نعم: أن نظل نتحرك إلى الأبد دون "صلاح"، مثل السوس الذي ينخر في الخشب.

إثر كل مكالمة.. كانت الأسئلة بداخلي تزداد تعقيدًا، هل تم اختياري عشوائيًا؟ ولماذا لا يدربون منهم أشخاصًا ليكونوا "صلاح"؟

- وكيف أكون "صلاح" إذا أردت؟ كيف أتذكر؟

- كل "صلاح" كان له منهج مختلف؛ ليتخلص من تلوثه بالحياة ويستقبل مكالماتنا. البعض كان يُخضِع نفسه لصوم طويل، والبعض كان يترك عمله ويعيش في عزلة عن الناس، والبعض كان يترك بلده وينتقل من مكان لآخر كل فترة... كل "صلاح" يصنع خندقه

الخاص، وفي كل الأحوال يجمع الناس حوله أن شيئًا أصابه في عقله...

بعض الأحيان كان لا يُخفي تضجره من كثرة الأسئلة، وحتى المكالمات صارت تقل مع الوقت.

- لا بد أن هناك خطأ، أنت تستغرق وقتًا طويلًا بالفعل.

لم أعد أنام. مشدودًا بخيط خفي إلى شاشة التليفون -الذي لم أعد أفارقه- مُقلِّلًا بقدر الإمكان من تواجدي مع الناس؛ خشية أن تأتيني أحد مكالماتهم. حتى عند تواجدي معهم لا أكون أفضل حالًا، يستمر رأسي في طحن الأفكار والكلمات، لا بد أنهم اختاروا الشخص الخطأ. بعض الأوقات كنت أشعر به بداخلي، "صلاح"... يندفع مثل لص يريد أن يسرق حياتي. حينذاك، ينتصب الحذر مثل أشواك سامَّة، وأعرف أنني لو تركت نفسي لحظة.. سأضيع فيه! حياتي الخاصة، امتيازاتي الصغيرة التي جاهدت لاكتسابها، وخططي المستقبلية... تذوب في يدي مثل العناكب

البحرية التي يخلفها البحر على الشاطئ. علاقاتي الشخصية، حتى الحميمية منها... توقفت عن ممارستها. زملائي في العمل لفتوا نظري إلى لوني الشاحب، ووزني الذي "في النازل" حتى ذلك اليوم البعيد.

اتصل بي الرقم الأول، هو الرقم الأول لا ريب، صوت أخي الميت! جاءني، لم يكن وحده، كان الحديث الدائر بينه وبينهم عن الآخرين، وسمعتُ صفعات وضحكات بصوت خشن وبلهجة عجيبة. لا بد أنهم عثروا عليه، وفتحوا التليفون بدون قصد. أغلقت الخط بسرعة، اتصلت بأول رقم صادفني من الأرقام التي سجلتها لهم، وكان هذا هو خطئي الأخير... على الطرف الآخر لم يكن الصوت من ضمن الأصوات التي أعرفها، لا بد أنني أيقظتُه، بصوت مخمور سأل:

- من؟

قلت له:

- أنا صلاح.

قال متعجبًا:

- من؟

اندفعت متماديًا أتصل بالأرقام الأخرى، نفس النتيجة، حتى الرجل العاقل صار بقدرة قادر امرأة بيتية متعجلة، أدركت متأخرًا أنني أخطأت! ولكن لم يعد لديَّ شيء أخسره...

على مدى ساعات طويلة أعدت الاتصال، لعل وعسى... جميعُهم كانوا أشخاصًا يمارسون حياتهم العادية. أحيانًا -من فرط يأسي- كنت أتوغل في الحديث معهم، فيعدُّونني مجرد شخص ظريف في عقله خِفةٌ، فرضَتْه عليهم مكتسبات العصر الحديث! ولكن كثيرًا ما كنت أصمت بعد السؤال الأول، مقاومًا تلك الغصة التي تنمو في زوري، ممعِنًا في الإنصات إلى خلفية الأصوات: صراخ الأطفال، طشطشة الزيت، خبط الملاعق في الأطباق... أمتصُّ الأصوات بشغف، مثل حلقة الزيت في المعادلات الكيميائية، فأشعر بالتوازن يعود إليَّ! على الأقل هناك أناس يمارسون حياتهم ببساطة رغم ذلك.

مرت أيام كثيرة منذ ذلك اليوم، والهاتف يلفه الصمت كالقبر، لا أُخفي عليكم، ضاعت مني تفاصيل الحياة اليومية، كأنني ولدت لأول وهلة! أثمانُ الأشياء، أرقامُ الحافلات على الخطوط المختلفة، أسماءُ المدن وعواصمها، وحتى الشخصيات العامة المشهورة التي يذكر الناس أسماءهم مع أنفاسهم دون صعوبة تذكر! حالة غرامشيَّة...

عندما أسير بين الناس، أو أقف في طابور الخبز أو أركب الحافلة.. أشعر أن الشيء الذي كان يميزني عنهم فقدته إلى الأبد، وأنني صرت مثلهم، ولكني لا أفقد الأمل في أنهم يراقبونني! المكتب؟ ربما... وربما يستعملونني مرة أخرى.

أتساءل بيني وبين نفسي: ما مصيرُهم بدوني بعد أن خذلتهم؟ لم أعد أفكر في حياتي كما كنت أفكر فيها من قبل، يسألونني كثيرًا: "لماذا لا تتزوج؟" ولكن كيف أشرح لهم؟! لحظات كثيرة أوشك أن أحكي لمن حولي، ولكني أتراجع، أحيانًا أتلقى الإشارات مثل الإلهام،

فيتجدد أملي. إنهم يتحركون! أُمسك الهاتف في يدي وأتأهَّب: "أنا صلاح"!

# الأصوات الخفية

جيراننا – الحائط في الحائط - بالبيت الجديد الذي اشتريناه تصل أصواتهم إلينا وحواراتُهم، خاصة عندما يصفو الهواء. عندما لاحظ أبي دهشتنا من وصول أصواتهم إلينا بهذا الوضوح العجيب أشار إلى مواسير الصرف المشتركة والمصنوعة من الحديد الزهر وقال: إنها تنقل الأصوات بسهولة.

الحوارات المسلية والمشاكل والخبايا والأسرار، التي كانت تدور خلف الحائط، تسجل تاريخ عائلة! مشَكِّلة مادة خصبة لخيالنا؛ وتصور كيف يعيش جيراننا الجدد بينما لا نراهم.

ولم يكن التلفاز قد انتشر كما انتشر الآن. العائلات الغنية وحدها كانت تملكه. الكهرباء أتت أيضًا فيما بعد. وعندما يجيء الليل تأتي الأصوات أصفى مما تكون في أي وقت من أوقات النهار.

الأصوات التي ضايقتنا في البداية -حتى إن أبي اوشك أكثر من مرة على الذهاب لتنبيههم- صارت بمرور الوقت مادة تسليتنا الوحيدة. خاصة على العشاء. الطعام يُمضغ ببطء؛ حتى لا تصدر منه أي ضجة داخلية. بينما التركيز بالكامل منصب على الأصوات.

هذا السلوك غير الأخلاقي تجاه جيراننا لم ننتبه له في البداية: حتى صار شيئًا لا يُستغنى عنه. أبي وأمي تورَّطا مثلنا في تلك اللذة العجيبة. فعندما يتأخر أبي في الدكان ويفوته العشاء لا يصبر. ويتبادل مع أمي كلمات مشفرة تلخص ما فاته.

أصوات مواسير الصرف المشتركة -منذ انتقالنا إلى البيت الجديد- قلبت الروتين اليومي لحياتنا رأسًا على عقب. حواراتنا انخفضت كمًّا ونوعًا وصارت هامسة

مختصرة إلى أبعد الحدود، مما جعل أبي يتوقف تدريجيًا عن الحديث معنا عن مشاكل عمله، وأخي - المتدفق في حكاياته عن الجامعة وكلام الناس في المواصلات عن الغلاء والأسعار وكراهية الحكومة- سكت تمامًا مثله، والغريب أنه حتى أمي التي لم تتوقف يومًا عن إخبار أبي بمشاكلنا واحتياجات البيت سكتت أيضًا! وأثناء المذاكرة اليومية يظل الكتاب مفتوحًا على نفس الصفحة لوقت طويل، والقلم يرسم بالونات فارغة على حوافها. مع مرور الأيام ضاعت لذة حياتنا المشتركة، وبدا كأن كل واحد منا ينمو في جزيرته الخاصة.

الكلمات الناقصة -التي تأتي من خلف الحائط- لم تكن ترسم لنا أحداثًا كاملة؛ وذلك لغموضها وارتباطها بأشياء تحدث ولا نراها، ولكن -كما يتعود مدمن الخمر على مرارتها- تعودنا على حشو الفراغات، كتمارين المحادثة في المدرسة من خيالنا الخاص، وبذلك أصبح لكل واحد منا تصوره الخاص عن العائلة الأخرى التي

تقع خلف الحائط، وإن اشتركنا في الأصل: أنصاف الجُمل. وكان لكل واحد منا الشيء الذي يبهره بالعائلة الأخرى. أنا مثلًا أعجبتني روايات البطولة لابنهم الذي يخدم في الجيش: الأماكن التي يراها، وسلخهم للثعابين وأكلها نيئة، وبقاؤهم بالأيام في خنادق حفروها بملعقة، ليس معهم إلا بسكويت مملَّح و"زمزمية" ماء، يشربون ويتوضؤون للصلاة منها. أمي لفتت نظر أبي إلى كلمات الغزل التي يقولها الرجل لزوجته، وطريقة استماعه لتفاهات كلامها دون مقاطعة. أما أخي فحدثني سرًّا أنه يحب ابنتهم: طريقتها في الكلام، وليونة صوتها ونداوته، والبحة الجائعة التي به، أخبرني بهذا كله فأحببتها معه! ولكن دون مطامع: لصغر سني. أبي أحب الرجل العجوز؛ الجد من ناحية الأب على ما يبدو، طريقته في قراءة القرآن والنصائح المدعمة بالأمثال الشعبية.

تدريجيًا بدأنا نشعر بأن شيئًا في حياتنا أصابه العطب: انتقل أخي من سنة لأخرى -لأول مرة- بالحد الأقصى من المواد التي رسب فيها. وحصلت أنا على درجات، أقل

ما توصف بالمُخزِية. بالنسبة لوضعي السابق في الفصل. وتوقف أبي عن قراءة ورده اليومي من القرآن منشغلًا بحفظ نصائح الجد وترديدها، وحلاوة صوته في القرآن، وأحيانًا بصورة خفية ملتذًّا بصوت الابنة المبحوح. أما أمي فنسيت لمرات وضع المِلح على الأرز فأطعمناه الدواجن.

جاء أبي يومًا من الخارج مسرعًا، دخل ودون أن يلقي السلام صعد إلى السطح جريًا، ثوانٍ وجاء بأخي ممسكًا به من ذراعه، وفي اليد الأخرى الشيء الذي تبينَّاه من النظرة الأولى: منظار مقرب! قال أبي بصوت هامس لأمي:

–تفضلي! ابنك الجامعي الساقط يتجسس على الجيران!

أخي الذي كبر عن الضرب، ناظرًا بعيون زائغة. قال بصوت هامس أيضًا:

–لم أتمكن! لم أرَ أحدًا!

أمي أخذت تدق على صدرها وتردد: "فضحتنا!"

اكتفى أبي بتكسير المنظار وتحريم طلوع السطح على أخي. أما عن أخي فقد امتنع عن الأكل معنا، وأغلق باب غرفته عليه من الداخل، وبدأ -كعادته- في السطو ليلًا على المطبخ لالتهام حاجته من الطعام واقفًا، والهروب إلى غرفته بسرعة عند صدور أي صوت من الصالة.

العقاب الآخر قام به أبي بعد أيام، وجاء دون قصد عقابًا لنا كلنا، وتمثل في شراء مذياع، وقام بتشغيله في الصالة على محطة القرآن الكريم، بأقصى صوت ممكن، مغطيًا على أصوات مواسير الصرف المشتركة.

الأيام الأولى بدت وكأننا استعدنا حياتنا القديمة، ولكن الإدمان والشوق جعلني ذات مرة وأنا أمر في الصالة -ملتفتا حولي كالسارق- أحرك مؤشر الصوت لينخفض قليلًا، لم يكن كافيًا، ولكن الخوف ودقات

قلبي التي سمعتها عالية في أذني حتى أصابتني بالصمم منعتني عن الاستمرار.

مرة بعد مرة -ولم أكن وحدي فيما يبدو- تحرك مؤشر المذياع، وكأن الجميع تورَّطوا في هذه اللعبة بما فيهم أبي، حتى عادت الأصوات مرة أخرى ترسم عالمها لكل واحد منا، واستعدنا لذتنا الآثمة...

وحدث ذات يوم ما جعل أبي يذهب للجيران، لا أتذكر بالضبط ما هو، سمعته يحكي لأمي أثناء الغذاء أنه ذهب إليهم ودق على الباب طويلًا فلم يرد أحد. بعد قيلولة الغذاء وأبي يشرب الشاي، عادت أصواتهم، فأرسلني أبي إليهم.

أتذكر هذا اليوم جيدًا كأنه الآن! أول مطر الشتاء لم يستغرق دقائق وتوقف، وصعدتُ رائحة تراب الصيف المبلَّل في الهواء. عندما وقفت أمام البيت المكون من دور واحد، بلكون منخفض، وحبال غسيل مهترئة من الشمس، وأصائص زرع جفت فيها عيدان اللبلاب وصارت حطبًا... شعرت بإحساس عجيب،

ولكني ألقيته خلف ظهري. دققت على الباب طويلًا حتى كلَّت مفاصلُ يدي. همَمْت بالعودة. ولكن خطرت لي فكرة. تدافعَ الدم إلى أذني. ونظرت حولي. اتخذت زاوية معينة خلف الشباك تمكنني من الرؤية... لم أرَ أشخاصًا! مضيتُ في تأمل المكان: الصالة فيما يبدو. كراسي "فوتيل" مُغطَّاة بقماش أبيض وغبار، وعنكبوت يعشش في الأركان. وقطعة من إسمنت السقف سقطت من نشع مستمر لماء المطر في الشتاء السابق. وتفتت على الأرض إلى عشرات الأجزاء! وهنا انفجر الدم الساخن في قلبي. وشعرت بمرور لهب بجوار أذني اليمنى. ووقف شعر رأسي كالمسامير. وأثناء تراجعي للخلف.. سقطت على ظهري.

جاء أبي معي ونظر مثلما نظرت. سأل البيوت حولنا فقالوا إن جيراننا مسافرون منذ سنتين أو أكثر! وعندما عدنا قام بتزويد صوت المذياع على آخره! وقال لي: "كن رجلًا. ولا تخبر أحدًا."

كان أبي أول من بدأ بإخبار أمي! الفزع في الأيام الأولى من الاقتراب من الحائط المشترك. ذهبت محاولات أبي لبيع البيت -تحت إلحاح أمي- مع الريح. وظل صوت المذياع هو سيد الموقف. أبي محاولًا هزيمة الخوف في قلوبنا قال إننا لا نعرف عدد البيوت المشتركة معنا في الصرف. أما أخي فضحك عندما عرف، وسماهم جن المواسير. ولكن الألفة والتعود -لا التبريرات- هما من هزما الخوف. وعندما كنت أعود أحيانًا من الخارج أجد صوت المذياع قد عاد منخفضًا من جديد، والثلاثةَ جالسين في الصالة كتماثيل المِلح!

هذه الفترة من حياتنا مرت دون تفسير: بداية من تورطنا غير الأخلاقي في تلك الإذاعة الوهمية: الجحيم الذي وضعنا أنفسنا فيه، جحيم الاستماع لحياة الآخرين، وتوقفنا عن صنع حياتنا الخاصة والتمتع بها... نهايةً بالعقاب كما كان يحلو لي فلسفة الكلمات.

أما أنا.. فظللت أفكر في مغزى ما حدث. حكيت لكثيرين ولم يجدوها إلا حكاية مسلية لا تُصدق، أو نوع

من الوهم الجماعي الذي وقعنا فيه، كرؤية الأشباح والأطباق الطائرة. لكني بعد سنوات ظهر لي المغزى تدريجيًا، مثل سفينة غارقة ينحسر عنها ماء البحر، وهو شيء لن أقوله بهذه السهولة. وأستطيع أن أقول إن حياتي تغيرت كلية منذ ذلك اليوم الذي رأيت فيه من النافذة، الوهم الذي تورطت فيه كالحقيقة...

# البيت الكبير

أمر واحد دأب أبي في حمى مرضه الأخير على طلبه منا، وهو الذهاب به إلى البيت الكبير، حقيقي أن اللفظ لم يُشر إلى معنًى نفهمه؛ فلم نكن نعرف في حياتنا سوى بيت واحد عشنا فيه ولا زلنا. رغم ذلك كنا نضطر إلى الرد على طلبه بالتسويف إلى أن تتحسن صحته. نظرًا لأن أسلوب أبي في الطلب لم يكن به أثرٌ للجنون أو هلاوس المرض.

بدايةً.. امتلئت شيخوخة أبي بالتصرفات العجيبة؛ شرائِه العكاز في وقت يستطيع فيه المشي بدونه، وهو الذي خلت حياته من اصطناع الفخامة والأبهة. مبيتِه خارج البيت لأيام خروجًا عن عادته المقدسة بالتواجد في البيت بعد العشاء. إصرارِه على

وهم المرض قبل أن يمرض حقيقة، نزعِ الأرض -إرثه من أبيه- من يد مستأجريها ليقوم بفلاحتها بنفسه، رغم فشله في ذلك عدة مرات، علاوة على محاولته الأسطورية المخزية لبيع البيت والتي اوقفناها في الوقت المناسب.

جاءت هذه التصرفات ليس ترتيبًا، بل تسلسلًا وردود أفعال، وخنادق يحتمي بها من تصرفاته السابقة، بعيدًا عن لوم الآخرين. دورة حياة أدمن أبي تَكرارها قبل سقوطه الفعلي في المرض، والذي بدأ بوقوعه على ركبتيه وسط الناس على عتبة المسجد القريب من البيت، حيث ظل مذهولًا حتى أنهضوه من تحت إبطيه رافضًا بغضب بعد ذلك عروضَهم لإيصاله إلى البيت.

كان لذهول أبي عند وقوعه ما يبرره، وهو الذي عاش حياة طويلة لم يتوقف خلالها عن العمل والحركة الدؤوب وإنشاء المشاريع ذات الطابع العائلي، وإدارة شئون الأرض وحده، منفردًا بقراراته، منفردًا

بزيارتها من وقت لآخر، لدرجة أننا ظللنا حتى موته لا نعرف أماكنها! مكررًا من وقت لآخر عبارته التقريرية المُسلَّم بها عنده " لم يخرج من ظهري إلا بنات".

مرة واحدة فقط خارج السياق اضطُرَّ أبي إلى إرسالي لمستأجري أرضنا. لم أكن أذكر عن الطريق إلا ذكريات طفولتي؛ دراجة أبي البخارية، والتصاقي بظهره كالقرداة، وخوفي المستمر الذي يصل إلى حد الهلع من لسع ماسورة العادم لقدمي، وإدماني لرائحة البنزين النيِّء المختلطة بعرق أبي.

سافرت لنصف الطريق قبل أن تنتهي المواصلات الرسمية، بعدها وجدت نفسي عالقًا في شبكة من الطرق الزراعية المتشابهة المحتشدة بمناظر متكررة من مضخات الري الهدارة، والرعاشات بطفوها "الهليوكبتري" فوق مستنقعات المياه، والقش الذي يغرغر تحت حذائي. الطرق الريفية ومداخل البلدان ومنظر البيوت من بعيد متشابهة لدرجة مميتة للغرباء، كدت أتوه... ثم أنقذني صاحب جرار زراعي ظل مصرًا

على مناداتي باسم أبي حتى أنزلني أمام البيت مباشرة. كانت الشمس تسقط من خلف ظهري متسببة في تميع الهواء على ظلي الساقط أمامي، فوق رأسي وعلى أكتافي.

كان الباب مفتوح على اتساعه، بعض الأواني خارج البيت تمهيدًا لغسلها، وسروال وحيد منشور على حبل منصوب بين فرعي شجرة مدقوقَين في الأرض، جاف ومُنشى كأنه غُمس في الملح، غرست عيني بكل جهدي مستشِفًّا حركةً كتوهج قشور السمك تحت سطح الماء في يوم مشمس، زادت عندما علموا بوجودي، انقذافات النسوة من غرفة لأخرى، لملمة متاعهم اليومي المبعثر على الأرض، تهيئة الصالة لاستقبال الضيف المهم: أنا!

لا أتذكر وجه من جذبني، ولكني أذكر حرارة استقباله، بزغت من ذلك الظلام الزئبقي وجوهٌ عديدة، التفَّت حولي بعدما أجلسوني على كرسي من الخشب يستعملونه منضدة لتلفازهم الذي وُضع إلى

جانب الحائط مؤقتًا. راودني إحساس أن عيونًا أخرى تتلصص عليَّ. ودون أن يسألوني.. أتوا بكوب شاي ظللت أحمله بين أصابعي من يد إلى أخرى حتى انتهيت منه ووضعته بجانب الكرسي على الأرض. مع الوقت تخلصتُ عيني من حرارة الشمس، فبدأتُ أتبين ثلاث غرف على اليمين ومثلهم على اليسار، وقبالة الباب الذي أدخلوني منه بعد انتهاء الغرف باب صغير، يبخ نحوي رائحة الروث الطازج، ويظهر لي من فضائه المشمس كومة تبن، وبضع دجاجات، وقطعة من السماء، ومن وقت لآخر تخور بهيمة لا أراها.

أبلغوني أن الرجل في الغيط، بنفس اللفظ: الرجل. وكان كل من أحاطوا بي رجالًا أقلهم كفلق النخل الذي يُعرشون به سقف بيتهم. كانت الوجوه تتبدل، ليس عشوائيًا كما ظننت في البداية، بل تبعًا لاستدعاء خفي لأداء مَهمات صغيرة في أنحاء البيت. استدعاء يتم من المرأة الوحيدة التي ظلت تدخل وتخرج من غرفة بعينها ربطت مفتاحها في طية من

طيات طرحتها. غرفة المعايش الممتلئة بالدقيق والسكر والأرز وطواجن اللبن و"بلاليص" الجبن وتعاليق البصل والثوم كما تصورتها. مرحبةً بي بكلمات منفردة كلما جاءت أو ذهبت: "شرفتنا"، "نورتنا"... ثم تبلغني في كل مرة كأنها تُصبرني أنه سيأتي حالًا. الحاجُّ: تسميتها الخاصة للرجل. كانت المرأة الوحيدة التي رأيتها وسمعتها طيلة زيارتي، والتي بهرتني بحركتها المكوكية. ولم أكن أعلم عنها إلا كلمات مقتضبة أسمعها من أمي. ربما ردًّا على تلميحات أبي الموجعة. لم تتوقف عن الحمل، في هذه السن، حتى أصبح أولاد أبنائها الكبار يلعبون مع أعمامهم الصغار في الشارع. تقولها أمي كأنها عيب: عددهم مثل الأرز.

الهلع الذي أصاب الدجاجات والأولاد، وصوت كشف أغطية أواني الطبخ بالداخل؛ استعجالا لطهي الطعام.. أنبأني بمجيء الرجل قبل أن يخبروني، ثم تغيرت الروائح من حولي لتصبح أشد من ذي قبل، ووجدتني أصافحه. رجلًا ملامحه تشبه ملامح المرأة

المكوكية؛ ربما من طول المعايشة! ويد كالكهف دافئة ومشققة، بينما تتناثر من فمه الكلمات المرحِّبة المنفردة مثل زوجته أيضًا.

على الطعام أخذت فرصتي مرة أخرى لأتفحصهم، تلك العائلة العجيبة، حول دائرتنا كان الأولاد يأتون ويخرجون حاملين الأجنحة والأرجل المطبوخة الساخنة على أعواد من قش الأرز، والقطط تتمسح بظهور الجالسين. الرجل وحده كان جالسًا القرفصاء، أما الباقون فعلى رُكبهم: ليس تخشعًا، بل لتسعهم دائرة الجلسة. الأم خلف ظهر الرجل مثل كائن خرافي بوجهين، أمامها صينية اللحم وعصا لطرد القطط، تناوله المنابات ليوزعها بيده على أولاده كما يتراءى له، تشفعها أحيانًا بكلمة خافتة فتتحرك يد الرجل لتضع منابًا متميزًا أمام أحد أبنائه. الطعام شيق الرائحة، تجسد أمامي الآن بدسامته الضاغطة، تتخطفه الأيدي والملاعق تخطفًا لم يتم تحجيمه ولو احتراماً لوجودي، تخطفًا لا تصلح له الأطباق، بل هما إناءان كبيران

تتخبط الملاعق في قعرهما عند خلوهما. فيُسمع لأثر التخبط بالداخل عند النسوة حركةٌ ودويٌّ؛ ليُعاد ملؤهما من جديد.

وأنا جالس هناك، في ذلك اليوم البعيد، وسط صخب الملاعق والمضغ، متذكرًا جلسة طعامنا، هدوء بيتنا وركوده، الأطباق المنفردة، وهوس أمي بالطعام الصحي، يقابله من الناحية الأخرى همجية أبي في شراء مؤن البيت كأنه يعول عائلة كبيرة العدد.. أدركتُ السبب الذي يجعل والدي تلو كل زيارة يتحدث عنهم بإعجاب لفترة طويلة.

بعد هذه الزيارة تكونت بيني وبينه -أبي- علاقة خاصة، نظرات متبادلة لم أفهمها في يوم من الأيام، ولكني استمتعت بها. كان يتحدث بأخبارهم بعد كل زيارة له كأنه يخصني بالكلام، وأضبط نفسي أحيانًا مسترسلًا في التفكير كأبي في ترابط هذه المؤسسة البشرية، وتشظينا!

جاء موت أبي بعدها بخمس سنوات. وبعد فشلنا في إعداد جنازة لائقة بأبي، وعشرات المشاكل الصغيرة بيننا على الإرث، والتي طفت على السطح وتم حلها جزئيًا خلف أبواب الغرف المغلقة، ومصباح الصالة الذي نسيناه مضاءً فترة طويلة من الوقت، تحت ضغط التوسل الصامت لعينَي أمي المبللتان بالدموع، والتي لم تشترك في مناقشتنا إلا بالبكاء وغرس أصابعها في حشية الكنبة الجالسة عليها كلما ارتفعت أصواتنا؛ خوفاً من الفضيحة. تبرعتُ مؤقتًا بإدارة شئون البيت والأرض، رغم أنني لم أكن كبير إخوتي، سبب آخر لتبرعي هذا... حاولتُ العثور عليه داخل قلبي، ولكنه كان مثل تلك العناكب البحرية التي يخلفها الموج على الشاطئ وتذوب من حرارة يدك، وعند أول فرصة تفرغت فيها.. وجدتني متوجهًا إلى البلد محمومًا بأفكاري الخاصة التي شلت تفكيري.

أمام البيت توقفت، تمامًا كالمرة الأولى، متحيرًا، اختفى الباب الخشبي المفتوح على اتساعه، وانتصبت

بدلًا منه بوابة حديدية مُقفَلة، وجرس بمصباح مضيء ظللت أضغط عليه مرة بعد مرة، فلم يُفتح في الأدوار الإسمنتية الأربعة شباكٌ واحدٌ. تراجعت بظهري إلى الإسفلت لأرفع بصري، أذكر تلك اللحظة تحديدًا: سكون الهواء، والشمس اللينة، والفقاقيع الميكروسكوبية التي لا يراها إلا ضعاف البصر، والتي تطايرت بعيدًا عن رموشي عندما خلعت نظارتي لأمسح العرق، وفي الثانية التالية فوجئت بالعينين المصوبتَين من بين تعشيقات الحديد بالبوابة...

كان هو الرجل، هو الذي فتح دون أن يكف عن الشكوى من صمم أبنائه حتى دخلت:

– منذ أن ركبنا الجرس وكأن من بالبيت ماتوا.

كان بئر السلم عبارة عن غرفة استقبال مؤقتة، أريكتين ومنضدة صغيرة عليها طقطوقة، وصَف من شكائر الغلة، وصندوق خشبي خاص بمضخة المياه المنزلية تعلوه بطيخة معدنية بيضاء. استغرقنا اللحظات الأولى في اعتذار الرجل لي عن عدم حضوره

جنازة والدي، وكانت أفكاري قد تناثرت بعيدًا عني، كل حماسي ولهفتي الخاصين بتلك الزيارة لم أعد أجد لهما الآن في قلبي أثر. من وقت لآخر كان الرجل يقف، عجوز ليس به أثر الانحناء، يطل برأسه من بئر السلم لأعلى وينادي:

– يا أولاد!

ينفتح باب من أبواب الشقق الثمانية، باب مختلف في كل مرة، صدى مختلف، وصوت طفل مختلف:

– نعم يا جد!

– الشاي للضيف! فضحتونا!

أخيرًا بعد عدة محاولات جاءت صينية الشاي، قال الرجل معتذرًا:

– هكذا الحال منذ ماتت المرأة؛ صار كل حي يطبخ وحده، والأكياس السوداء الله يلعنها ويلعن من بدعها! تأتي من الخارج وكأن كل أخ يخاف أن يأكل معه أخوه!

حتى العمل في الغيط صرتُ أستأجر عليه. كل واحد يغلق عليه الباب ولا تعرف إن كان بالداخل أم لا.

تضخمت الآن أصوات كائنات الشقق الثمانية، وكأني أسمعها لأول وهلة: سحب كرسي فوق البلاط العاري، دبدبة الأقدام، صرخات مكتومة، أصوات الصرف وهي تتخبط في المواسير... ومن وقت لآخر يرفع الرجل صوته "ديسبلات" إضافية فوق صوت مضخة المياه بجانبنا، ثم أغرق في صمم مفاجئ عند توقفها.

استمر الرجل في الكلام:

– طوال النهار والليل يشتغل الموتور حتى يكاد يحترق ولا تعرف من يشغله! أُرسل إليهم الأولاد، وأتصل أحيانًا بالهاتف، واحدًا بعد الآخر... ولا فائدة! آخر مرة احترق فيها ظل يعمل نهارًا كاملًا! وكل واحد يظن أن الآخر يستعمله، وتركتهم عندًا من قرفي، ولكني كنت الضحية لأن الماء يأتي إليَّ بضغط الشبكة، وحتى أصلحوا الموتور كدت أترك لهم شقتي الصغيرة.

بعد قليل جاءت صينية شاي أخرى ظننتها للوهلة الأولى من كرم الضيافة، ولكني خمنت أنها استجابة متأخرة. تحدث الرجل:

– اعذرني! الشبه قريب، ولكن لا أذكر اسمك. أبوك الله يرحمه تكلم معي عنكم، حتى إني أعرفكم واحدًا واحدًا، لكن بالسيرة.

أخبرته اسمي، وأنني زرتهم من قبل. هز رأسه أن "لا أتذكر". غرقنا لساعة في حسابات الأرض، الوضع صعب؛ كنت أعتقد أنه سيتودد لنمد فترة تأجير الأرض. قال:

– إن الأرض أصبحت عبئًا عليَّ؛ الفلاحة متعبة، وكما ترى لا أولاد يساعدون، وأنا احتفظت بها في السنوات الأخيرة لأجل خاطر المرحوم، أما الآن...

قصة معادة! لا أعرف لِمَ بدا لي الأمرُ مألوفًا كأنه حدث معي من قبل! سألت الرجل لأغير الموضوع:

– متى هدمتم البيت القديم؟

قال وهو يزيح بؤبؤ عينه لأعلى متذكرًا:

– منذ سنوات، ربما قبل أن تولد أنت. أتذَكَّر أن أباك أخبرني باسمك لأول مرة قبل أن يسجله هنا على هذا المقعد بعد بناء البيت.

دقائق صامتة كنت مذهولا خلالها... لدرجة جعلت الرجل يختلس النظر في كوب الشاي الخاص بي شكًّا منه. لا بد أنه اختلط أو نسي، هكذا عللت لنفسي في ذلك اليوم.

قلت بعدها إن تلك الزيارة لم تؤثر في تفكيري إلى الحد الذي كنت أتخيله، وإني نسيتها كما نسيت الزيارة التي سبقتها منذ خمس سنوات مندفعًا في ممارسة حياتي الخاصة، منتشيًا بانتصاراتي الضئيلة، ومستسلمًا لدفء علاقاتي الحميمية، ورغبتي في إغلاق بابي الخاص عليَّ، ودفن رأسي في الرمال بقية العمر، متأكدًا أن هذا حدث لأبي ذات يوم، تخلصه من آثار دولة الخلافة والبيت الكبير الذي اندمج في كروموسوماتنا منذ ذلك العهد البعيد.

أقول الآن صادقًا إني لم أضع رأسي على وسادتي بعدها إلا وأنا أحاول أن أطرد عني التفكير في مغزى هاتين الزيارتين: سبب تلك الراحة العميقة التي شعرت بها بعد أن لفظتْني البوابة الحديدية للخارج في ذلك اليوم خاصة، رغم تعب الأيام العصيبة التي تلت موت والدي، ماشيًا وسط جميع تلك البنايات الإسمنتية التي خلقت فيما بينها شيوعًا صوتيًا خاصًا بوقت المسلسل اليومي، متمنيًّا بكل قوة قلبي أن أجد طريقة ما لأتحدث إلى أبي! فقط كلمات قليلة... أنا الذي عشت معه كل هذه السنوات دون أن أفتح له قلبي مرة واحدة، أدفع نصف عمري الآن لأكلمه بضع كلمات، متأكدًا أن تلك الكلمات لن أصل إلى معرفتها إلا حين أراه، تندفع إلى داخلي كلما هممت أن أمسكها، مثل حلزون في قوقعته، تتولد على شفتي وأجد طعمها، ولكنها تعود إلى أعماقي، كالعناكب البحرية التي تذوب من حرارة يدك عندما تلمسها.

# الحكاية المجهولة من بلاد العصافير

لا أشك لحظة أنك مررت ببلدنا؛ لأنه من المؤكد أنك لن تفوت زيارة مدينتنا التي تقع على البحر ولو لمرة واحدة في العمر، وسواء انتبهت أو لم تنتبه، فلا بد أن يحكي السائق أو أحد الركاب، وستلصق أنفك بزجاج السيارة الذي أُغلق -الآن ولا بد؛ حتى لا يؤذيك غبار الطريق- منبهرًا بكمية الأشجار وحجمها، والسواقي، وحركة الفلاحين في غيطانهم، والطريق الزراعية القصيرة المظلَّلة بالأشجار، مثل رسم لطفل عن حياة الريف السعيدة.

ومهما تفرع الكلام وكثر عن أصل المشكلة... صحيح أن الشحاذ له نصف الدنيا، ولكن من يقطع الطريق تأتيه الدنيا كلها، وهذا ما عرفناه أخيرًا بعد أول مرة حملنا فروع الأشجار لنضعها على الطريق.

وواقع الأشياء بعكس ما يبدو: الطريق الزراعية التي تحولها أقل الأمطار إلى فخ من الصابون تتزحلق من فوقه السيارات والبشر وبُحت اصواتنا في المطالبة بمد الأسفلت إليه من الطريق الرئيسي. مياه الشرب التي تنقطع لأسابيع دون تنبيه لتغذية المدينة الساحلية البعيدة. ثم القشة الأخيرة: الأشجار التي تسقط فروعها على أسلاك الكهرباء فتقطعها. وتصعق البشر والبهائم. ونعيش في الظلام الذي يتخثر على معالم الأشياء وينيمنا من العشاء لحين إصلاح العطل.

كل شيء له بداية. عشنا لسنوات دون أمل في إصلاح الوضع: فليس من بيننا عضو لمجلس الشعب أو سفاح أو "سكرتير" وزير أو مثير للفتنة الطائفية... حتى دفعَ الضجرُ والبطالة البعضَ إلى كتابة شكوى لاستبدال الأسلاك الكهربائية العارية بأخرى مكسوة. وجُمعت الإمضاءات والأختام وبصمات الأصابع لمن ليس معه ختم. حتى تأكدنا أن الورقة وصلت للقوة الكافية للتأثير. ثم دفعناها في متاهة الحكومة.

إثر كل حادثة كانت الشكوى تجد من يتحمس للبحث عن موقفها في دهاليز المكاتب، وهكذا كانت الأخبار التي تصل إلينا، مبتورة! وقد انفصلت عن سير الأحداث منذ وقت بعيد، حيث لم نقم بالتصرف الصحيح في الوقت المناسب: رِشوة الموظفين لتحريك الورقة لأعلى، والقيام بواجب الضيافة للمهندس الذي سيعاين الوضع ويكتب التقرير؛ حتى يتوقف عن ترسيب الملف طالما أن لا أحد يسأل.

المهم، تبادلنا حكاية لا يُعرف لها راوٍ، ولكنها اكتسبت قوة المعتقدات التي لا تتزحزح، ربما أحد الذين ذهبوا للسؤال عن مصير الورقة القديمة وقد عاد دون إجابة.. آثرَ أن يؤلف شيئًا للرد، أو الحقيقة - نواة الحقيقة! فما أكثر الحقائق التي تُضحك. ربما التصقت بها التفاصيل المخترعة التي تلتصق بالحقائق لما يطول بها الوقت، ولكنها الحقيقة. نتذكر الحكاية كالعادة، نخرجها من الأدراج المنسية إذا دعت الحاجة

إلى استعمالها. كتذكرنا لأشياء البيت القديمة عند مرور مشترٍ "الروبابيكيا".

الحكاية عن مصير الورقة القديمة. الحجة الغريبة لرفضها. حجة لا تستطيع إلا الحكومة أن تدعيها. والتي نتجت أيضًا من تسلل استنتاجي لا يستطيع إلا موظفو الحكومة أن يستعملوه: المهندس الذي جاء في غفلة منا، ولم نقم له بواجب الضيافة اللازم. وعاين -ربما من على الإسفلت البعيد أو أبعد قليلًا- من فوق مكتبه بخلفيته المرصوصة الأرفف بالأكلاسيهات المليئة بتقارير مشابهة. والتي تتلخص فكرتها في حيلة واحدة: حيلة لم يتعلمها من فوق مدرجات كليته أو من كتبه السميكة المكتظة بالعلم. وإنما تعلمها من فلاحي بلدته عندما يحمل لهم الماء جثة قتيل أو غريق. وهي: دفع الجثة لتطفو إلى البلد التالية!

فالسبب في سقوط أسلاك الكهرباء على الأهالي ليس لأنها قديمة وإنما بسبب الكتلة الكثيفة للأشجار

القديمة التي تسقط أفرعها على الأسلاك فتقطعها! وبالتالي فإن السبب على ما يبدو زراعيًا بحتًا وهكذا تم تحويل الورقة إلى الزراعة فجاءوا أيضًا. ونحن غارقين في نفس الغفلة. وعاينوا -بالتأكيد هذه المرة عاينوا- لأنهم وضعوا سببًا لسقوط أفرع أشجارهم -بعيدًا طبعًا عنهم- لا تتوافر معرفته إلا لمن زار بلدتنا وهو أن العصافير هي سبب المشكلة: ثقل العصافير على أفرع الأشجار سبب سقوطها. وسبب تواجد العصافير هو السلوك غير الحضاري للفلاحين في تجفيف قمحهم وأرزهم وأذرتهم فوق الأسطح والأجران. فالمطلوب هو تجويع العصافير حتى تهج وتتوقف الحوادث. إلى هنا انتهت الحكاية. أو بدأت.

والعصافير في بلدنا -لمن لا يعلم- بالملايين. وهي مستمرة في وجودها الأزلي على الأشجار وأسلاك الكهرباء. لا تزعجها طلقات صياد أو يثني عزمها عن الهبوط خيالات المآته مهما أُتقن تنكرها بلون التراب. ليس لها زقزقة الكناريا. ولا ألوان طيور الزينة. ولا

شقلبة ومرح السنونو الذي يمازح السيارات على الإسفلت. وهي لا تصنع أعشاشًا أو تضع بيضًا. بل تأتي إلينا من الغيطان التي تحيطنا من الجهات الأربع لمد البصر. تأتي مع الساعة الأخيرة قبل الغروب جماعة تلو الأخرى. كأن صفارة خفية انطلقت في الفضاء. كستائر قماش تطير ويتجعد بساطها في الهواء ثم ينفرد. وقد امتلأت حواصلها بالحبوب. وظهر على تصرفها ذلك المرح الذي يظهر على الطيور عندما تشبع. فعندما ترى أحدًا فوق سطح بيته تنحدر في الهواء كأنها تمارس التزحلق حتى تكاد تمس رأسه.

لساعة قبل الغروب ولساعة بعدها لا تستطيع أن تجلس تحت شجرة من زقزقتها التي تصم الآذان. ينشب العراك على أماكن الليلة الفائتة حتى ينتقل إلى أسلاك الكهرباء التي تمتلئ عن آخرها أيضًا وتُرى العصافير المتبقية في غبشة الظلام مثل الطوب الذي يُقذف. حتى إن المارة ينحنون لتفاديها قبل أن يدركوا الخُدعة. تروح وتجيء حتى تستقر على قالب طوب بارز

أو هوائي إستقبال أو سيخ حديد بارز من عمود خرساني تنام عليه. وعندما تهدأ الأصوات ويتصادف ان تمر تحت شجرة وترفع رأسك تبدو لك الشجرة.كشجر القطن المثقل بلوز القطن التي تشبهها بطون العصافير.

إذن وضعت الحكومة -أو الحكاية- حائطها السد، ولم يكن أحدًا مستعدًا ليذهب لتأكيد الكلام، وأصبحت الحكاية بدلًا من أن تكون سببًا للتكدير أصبحت سببًا للراحة. حاولنا وفشلنا على الأقل.

ظلت الأسلاك تسقط وتقتل الإنسان والحيوان دون تمييز، ونحمل فروع الأشجار وننام بعرض الطريق، ويأتي المحافظ ويقول وعودًا يعرف أننا نعرف أنه لن ينفذها، ثم ننسحب فرادى لأسباب مختلفة: كالبرد، والجوع، والخوف، واليأس، أو حتى استدعاء من البيت.

يبدو الأمر كالنكات المغرقة في الإسفاف، "جَوّعِوا العصافير فهي من تفسد حياتكم"، رغم سخريتنا منهم..

يسري بيننا سلوك عدواني يصبح سلوكًا شائعا ضد كل عصفور. ليس (هش)، وإنما طوبة تُقذف. يفعلها الكبير قبل الصغير! ونظرة حقد وغضب تتدفق حبرًا سامًّا في عينه.

وكأن كراهية الأشياء تُزيدها قوة، استمرت العصافير تملأ الدنيا حولنا رغم ضآلة فعلها التكاثري، تقفز فيه كما تقفز الطيور. ويسبق هذه القفزة شقشقة وحديث برقي سريع متبادل بإشارات مورس، ومداعبات بنكش ريش الصدر بالمناقير. وتأتي الالتفافة وانحناء الأنثى بخضوع ورفرفة ثم القفزة، بحيث يضاف ثقل الذكر على سلك الكهرباء إلى ثقل الأنثى، والأمر لا يستغرق شظايا من الثانية دون تبليع للعاب أو قبلات. فقط المساحة السنتيمترية البيضاء من الريش الأبيض الناعم في مؤخرة الانثى التي تنقبض وتنبسط مثل أصابع اليد، ثم يصبح الذكر إلى جوارها يطرد سخونة اللحظة بنفضة سريعة من ريشه، وفي اللحظة التالية يكونا نقطتين في سماء الله الواسعة.

# الأشياء الضائعة

دائمًا أمي كانت تقول إن فرحته لنفسه، أما حزنه فيوزعه على الجميع بالمجان، ومما لا شك فيه أن أول أيام إحالة أبي إلى المعاش كانت أيامًا منغصة لنا جميعًا؛ فأبي الذي ظل يمارس طقوسه الصباحية بنفس الترتيب لسنوات عديدة، نسمعها من تحت الأغطية الدافئة فنرثي له، وجد نفسه وقد انتُزع من تلك الطقوس، وتورط تحت الغطاء دون مرض أو إجازة إجبارية تفرضها الحكومة على موظفيها.

مثل طفل يتعلم المشي جرَّب أبي حياة البطالين، سحب الغطاء على أذنيه وحاول النوم حتى وقت متأخر، لف حول نفسه كالمغزل كأنه يختنق، وعندما لم يجد للنوم سبيلًا نفض عنه الغطاء بحركة قويه

كالمستقر على فعل شيء ما. قدماه دلَّاهما على الأرض، حيث أخذ يمعن النظر فيهما لمدة طويلة كأنه نسي الشيء الذي سيهم بفعله. في دورة المياه ظل يزحر ويهسّ. يستحث ما لا وجود له على ما يبدو، وعلى الحوض ترك الصنبور مفتوحًا وأخذ يبصق فيه كأنما ابتلع ذبابة، ثم طفا تقريبًا كل وقت الظهيرة بالغرف، يفتح الأدراج ويغلقها، يؤرجح الأبواب كأنه يتأكد من تشحيم المفصلات وعندما نادته أمي ليأكل معنا جاء بوجه محتشد بالإرهاق أكثر من أيام عمله القديم.

قضى أبي أيامًا عصيبة، أخيرًا استجاب لنصيحة أمي بالذهاب للتمشي لتغيير الجو، ولما جاء أخي من الخارج لم تصدقه أمي عندما أخبرها أنه رآه يضحك وسع فمه عند دكان البقال، فسرعان ما جاء عبر الباب أبي، بوجه مليء بزعابيب أمشير.

عمومًا انقلبت حياتنا بالبيت رأسًا على عقب، وجوده بيننا صار مشكلة يومية، الألفاظ التي نتبادلها عادة في التحدث صرنا نتحسسها بأطراف ألسنتنا قبل

أن ننطقها. أصبحنا مكبلين بخيوط خفية إلى أذنَيْ أبي وعيون أبي، خاصة أمي وأخي الكبير. تحول فراغ أبي إلى انتقاد دائم لتصرفاتهما. لا أعرف أول من أوحى إليه منهما بفكرته عن إصلاح الأشياء المعطلة بالبيت ليشغله. ربما مقلب من مقالب أخي أو نية طيبة من نوايا أمي، على أي حال -وكما ينبغي أن يقال- انقلب السحر على الساحر.

بدأ أولًا بالأشياء الصغيرة، أعمال النجارة والسباكة البسيطة التي لا تضر، تغيير اللمبات المحترقة ثم -حسب تعبير أخي- كبرت الحكاية في دماغه.

المشاكل القديمة التي كنا قد تأقلمنا معها وجدت من يهتم بها: المكواة التي لا يسخن سطحها، نختبره المرة تلو الأخرى بالبصق عليها حتى يجف الريق. الثلاجة التي يتسرب منها الماء من ثقب فشلت كل محاولتنا في البحث عنه، فتتحول بركة الماء مع يد الثلاجة إلى فخ مكهرب. الغسالة التي تمزق الملابس وتكسر أزرارها. التلفاز الذي بدأنا نزهد فيه نتيجة الطفو التلقائي

للصورة لأعلى ثم الثبات النسبي على هذا الوضع: نصف الحدث السفلي عاليًا، الأقدام التي تتحرك بدون رؤوس عاليًا بينما رؤوسها مبتورة في الجزء السفلي من الشاشة تدوسها أقدامها! حتى يحرك كمونَه حدثٌ ما: (إغلاقُ باب بشدة، مرور سيارة كبيرة على الإسفلت القريب...). اشترى أبي مكواة لحام وعدد من الأدوات يكفي ثمنها -كما قال أخي- لإصلاح جميع الأشياء المعطلة.

الأيام الأولى لم يحقق نجاحًا يُذكر، عدا أن الكهرباء صعقته مرتين! بالرغم من كل شيء أستطيع أن أقول إن أبي وجد عالمه الخاص الجديد، خاصة عندما بدأ يحقق نجاحاته المحدودة: المكواة ارتفعت حرارتها لكن دون سقف، حتى صارت تحرق الملابس بدلًا من أن تكويها، على أي حال نصف العمى ولا العمى كله، والغسالة توقفت عن تمزيق الملابس فقط إذا ضبطها أبي قبل كل نوبة غسيل.

أما التلفاز فبدا أن مشكلته خرجت من يد أبي للأبد. بعد عمليات اللحام الغامضة وقطع الأسلاك وتوصيلها ودس مفك الاختبار في كتلة الأسلاك. شيءٌ ما فسد ولم يعد هناك سبيل إلى إصلاحه. تسمم العالم الخاص بأبي إلى غير رجعة. وصار مزاجه الخاص مرتبطًا بالحياة الفلوروسنتية لعمق الشاشة الميتة: هذه الحياة التي كانت تنبثق أحيانًا كخيالات الظل تاركة خلفها نشعًا بحدود الجسم. فبينما يتحرك الممثل يسحب خلفه عددًا من الأجساد الحرارية كالشعيرات السامة لا تلبث حتى تتآكل. أما مباريات الكرة فكانت الشاشة تتحول إلى هرجلة من الخيالات الحرارية: فنضطر إلى إغلاق التلفاز لتهدئتها ثم نُعيد تشغيله.

الجولات اليومية التي يذهب فيها أبي للتمشية لتغيير جو البيت أسفرت عن عادة جديدة: جعلتنا نتفادى الشوارع التي يمر منها لإحساسنا بالخجل. بدأ يعود متأخرًا عن ذي قبل. ليست عودة في خط مستقيم مستغرقًا طول الطريق في الشيء الذي رأى أنه

سيدعم هوايته الجديدة، التقاط الأشياء من الأرض، عشرات الأشياء المتفاوتة في الحجم والنوع، حيث ينحني فجأة وسط الشارع ليفحص شيئًا تحت قدمه.يبحلق وينفخ ويكحت بظفر إصبعه الصغير ويعاود النفخ... حتى يقرر؛ فيكون مصيرها إما العودة إلى الأرض أو السقوط في جيب أبي، وذلك حتى يمتلئ جيبه بالأشياء المتربة؛ أشياء لا معنى لها إلا عند أبي (عدد لانهائي من اللمبات في حجم أفراخ الضفادع، أغطية ساعات، شنابر نظارات، مسامير وصواميل بجميع الأحجام، سوست، ...) ثم تأتي عملية إفراغ الجيب -نستطيع أن نسمعها من أي مكان في البيت، صوت اصطكاكها بخشب طاولة الأكل، والتدحرج، وسقوطها على الأرض- وهي عملية صارت مع الوقت شبه يومية، مسببة لأمي صداعًا مزمنًا، بداية من الأشياء الكبيرة التي ملأت الأدراج وظهر الدولاب، نهاية بالأشياء الميكروسكوبية التي يضعها أبي على ظهر كوب مقلوب، أو تحت "شلتة" الكنبة، أو يلفها في ورقة

مهملة على ترابيزة الأكل. ويكون مصيرها الضياع رغم تحركاتنا الحذرة: الأصابع التي تتحسس قعر الكوب وجوف الأطباق قبل أن تسحبها. وترفع شلتة الكنبة برفق حتى لا يتناثر شيء. وتشد الدرج برفق لكيلا تتهشم إحدى الأشياء الزجاجية. الألغام اللامرئية التي ينثرها في طريقنا ليعذبنا بها.

هذه الأشياء التي كان لها دورة حياة في بيتنا شبيهة بدورة حياة البلهارسيا: نظام العائل. حيث ينتقل الاهتمام بها من شخص لآخر. بداية من أبي ثم أمي وحتى أنا وأختي الصغيرة. نضعها في مكان ما بنوع من اللاوعي ونظل نتذكرها فترة من الوقت ثم ننساها. حيث تسقط في مكان ما لمدة طويلة حتى يأكلها الصدأ. أو يعثر عليها أخي فيعيدها إلى الشارع بتطويحة سريعة من يده في نافذة مفتوحة.

كنت أول من اكتشف هواية أخي في تطويح أشياء أبي فأخبرتهم بها في نوبة خصام بيننا. لولاها لظلت أمي

تعتقد أن العفاريت هي السبب في ضياع الأشياء بهذه الصورة.

يتذكر أبي فجأة أحد هذه الأشياء دون مقدمات، وعند تذكره تكفي عدة دقائق من البحث، كُل في مخابئه الخاصة، فنجدها أو نضطر لتحمل بضع أيام لنسيانه، والتي لا يجرؤ أحدنا خلالها على طلب شيء منه حتى ولو كان إمضاءه على شهادة المدرسة، هذه الأيام التي تكون بمثابة صك غفران لضياع الشيء بعينه عندما يعود ويتذكره مرة أخرى، فنفوت عليه الفرصة بأن نذكر له مُلابسات البحث عنه قبل ذلك، والذي يُعَدُّ حقًّا مكتسَبًا لنا: فيسكت، فلا يمكن أن نعيش الحزن مرتين بسبب نفس الشيء، هذا إن لم يكن الشيء الضائع مفك من المفكات التي يستخدمها في الإصلاح.

ومفكات أبي على كل لون وحجم، منها ما يضيؤه لمس الكهرباء، والممغنط، ومنها العادي تاما لا يميزه شئ، ولكنها تجتمع في صفة واحدة، أو عيب واحد: لم

يكن لها مكان محدد؛ ذلك لأن لها وظائف لا تُعد. تسبب تفلتها من أماكنها المعتادة. فهي الأقرب إلى يدك عند الحاجة إلى الزنق على مسامير نظارات الوجه عند تخلخل العدسات. وبدلًا من الريش وعيدان القش في تنظيف الأذن من الصمغ وتستخدم أمي الطويل منها لهرش المناطق التي لا تصلها يدها من ظهرها.

تَذكُّره للمفكات يتخذ احتمالات عشوائية تمامًا للحدوث. أمي تقول إنه يشعل الحريق لا لضياع المفكات وإنما لحدوث شيء أمامه لا يستطيع أن يتعارك عليه لتفاهته. كأن يثيره أحدنا أو يطلب منه مالًا لشراء شيء للبيت أو المدرسة. أو يضبطنا ضاحكين مع أخي -ابنه اللدود- في الصالة. أو يجد شيئًا في الأكل لا يعجبه: قوقعة لا تُرى في أوراق الخس. أو شعرة لا يستطيع أن يضبطها في طبق الشوربة. وقد يكون بسبب الملل والفراغ.

تشعر أمي ببوادر الحريق بحاستها السابعة. عندئذ تقول باستسلام تام "راح يدور في مفكاته" اللفظ ذاته

مع الأيام ومرور الزمن تم إسقاطه ليصبح رمزًا لا يخطئ مدلوله للأشياء التي يُصر فاعلها أنها لا زالت تُحدِث نفس تأثيرها الأول: فالمفكات هي الملابس القديمة التي تصر أمي على النبش فيها لنلبسها عند مطالبتنا لملابس جديدة، وهي الشلنات الورق منتهية الصلاحية التي يحتفظ بها أبي للتغلب على بالوعة الأيدي الممدودة لأولاد أختي، وهي -حتى- إعلانٌ قديم ظهر فجأة في التلفاز بعد فشله.

لدقائق، بعد ذهاب أبي للبحث عن المفك الضائع، تظل الضوضاء السائدة: صوت تدحرج الأشياء الصلبة داخل الأدراج عند فتحها، ارتداد المراتب القطنية على الألواح الخشبية لمُلة السرير... الجالس أمام التلفاز يخفض الصوت؛ وكأنه بهذا يفرمل من تفاعل الغضب داخل أبي. يبحث أبي عن أمي وعندما يجدها يسألها - سؤالًا روتينيًا كأنه لا ينوي إطلاقًا أن يغضب- عن المفك "الأحمر الصليبة" أو "الأزرق العادي". أمي التي لا تعرف هذه الصفات تجيبه بجدية كأنها تعرف، تسمي

له الأماكن المتوقع وجوده فيها، فينصرف وهو يتفتف بالكلام مع قشور شفتيه، وبعد ذلك تصبح ثورة أبي متوقعة الحدوث في أي وقت.

تصاب حياتنا بالشلل عند غضب أبي، تصبح الكلمات البريئة التي يُساء فهمها قش حرائق جديدة: نأكل في أطباق منفردين، وتترك أمي غرفتهما المشتركة وتأتي لتبيت معنا بجانب أختي، ويصعد أخي إلى السطح معظم تواجد أبي في البيت، ويسود في الصالة جو حزين ينصب خلالها مخروط من الشمس على الحائط، ويظل يتحرك ويتلون حتى نهاية النهار، وتطير بداخله -بلا حماس تقريبًا- ذبابة وحيدة كأنها حزينة مثلنا.

أيام الحزن هذه كانت تنتهي فجأة بلا مقدمات بقرار منفرد من أبي، ولكن تكرارها بدأ يدفعه أكثر لاستمراء الوحدة، وتعودت أمي على صحبتنا الليلية، أما نحن فتعودنا على الأكل المنفرد، في أي وقت من أوقات النهار، حسب الجوع، أكل بدون لذة أو

استطعام. عملية بلع ميكانيكية. الهدف منها ليس أكثر من ملء المعدة. بدأت تنمو فينا الطبائع الوحشية الخاصة بالأكل المنفرد؛ حيث اكتشفت لدى اشتراكي ذات مرة في وجبة جماعية بمدينة الطلاب السكوتَ المفاجئ لحشد الملاعق المتحركة فوق الطبق. ورافعًا عيني لأعلى فوجئت بالنظرات المُصوَّبة إليَّ بدهشة. كنتُ آكلُ بسرعة وبنهم، والأهم من ذلك.. من وسط الطبق متعديًا نصيب جاري.

أخي وقد بدأ في السفر إلى المدن القريبة للمبيت في عمله، وعند عودته -وفي كل مرة- يصطحب حياته الفردية: متمثلة في الأغذية المعلبة التي أدمنها. وصابونته المعطرة التي يتركها في ورقتها الأولى بعد كل استعمال تحت مخدته حتى تذوب تمامًا. مما أعطاني شعورًا قويًا أن بيتنا بالنسبة له أصبح مجرد فندق لا أكثر.

في ذلك الوقت من حياتي توغلت في إدراكي المصير: مصيري الخاص، مصيرنا، مصير أبي. أنا

كشخص غير قادر إلا على الأخذ في الوقت الذي ينتظر أبي فيه أن أعطي.. تعودتُ الدخول على المكاتب بحثًا عن عمل حاملًا أسماء وتوصيات، بكل ما يقتضيه الدخول من طقوس (خفض الكتفين، التضاؤل، الانكماش، رسم النظرات في بؤبؤ العين)، وعند عودتي حاملًا أحلامي الوردية المؤقتة يفجَؤني -في الصالة- ذاتُ الجو القديم مُخيِّمًا؛ فأتيقن أن أحد مفكات أبي قد ضاع، تركتْ أمي صينية الأرز على الكنبة؛ غالبًا لتلحق بأخي الغاضب المُصرُّ على

ترك البيت، فسقط عليها عصفور صغير لا يطيرُ عندما يراني، وأتكاسل أنا عن حركة اليد، مجرد حركة لأهشه.

ذلك لأنني أكون مستغرقًا وقتها، ألوك حزني الخاص، بامتداد باب غرفتنا المشتركة -أنا وأخي- أقرأ على مهل.. غيابَه، متمثلًا في الاختفاء الهمجي لأشيائه الفردية، جميعِ أشيائه، حتى صابونته المعطرة..

# رجل الثلاجة

امتلكنا في سنوات وعي طفولتي الأولى ثلاجة من ذلك النوع الذي يُصنع بالمصانع الحربية، الصارم الذي صُنع لأداء الغرض فقط دون أي إضافات، فلم يكن عجيبًا إذن أن يفقد ذات يوم وعلى مدى آلاف من مرات الفتح والغلق ديناميكيةَ إغلاقه.

عن نفسي أحكي. فتحتها في الأيام الأولى لمجيئها مئات المرات أملًا في مباغتة الرجل الصغير الخفي الذي يضيء النور بمجرد فتح الباب، أشهد أنه لم ينم قط، مؤديًا واجبه على أكمل وجه رغم قلة حصته من الطعام وذلك بسبب أن أمي اعتقدت يقينًا أن الثلاجات تغير طعم الأكل؛ فاستمرت في تخزين الطعام على سور الشرفة في ليالي الصيف ملفوفًا في جلالبيبها

القديمة. تاركةً الثلاجة فقط لتبريد الماء وتكوين الفخ الثلجي بأعلى الذي تلتصق به الأصابع... بعد شهور قليلة غادرَنا الرجلُ الصغير الخفي؛ لقلة مؤنته من الطعام فيما يبدو. ولم يعد يضيء النور.

بدأ عصيان الغلق بعد فترة قليلة من المرة التي كهرب فيها أحد أولاد أختي الصغار، مُدعيًا أن الثلاجة زغزغته. "فولت" خفيف في البداية. سرعان ما توحش. محولًا فتح باب الثلاجة إلى مغامرة حقيقية خطرة. القيام بشتى المناورات الانقضاضية من شتى الزوايا للمس الخاطف بيدك مع سحبها بسرعة لاختبار قوة التوصيل. المناورات التي لا تشبه شيئًا إلا إمساك ثعبان وتفادي عضته في الوقت ذاته.

ولكن -مثل كل الأمور التالفة في حياتنا- امتلك أبي لها حلًا مؤقتًا. بعيدًا جدًا عن اليوم الذي أنهي فيه المشكلة؛ مشكلة غلق الباب وليس فتحه! بِدق مسمار في العمق الإسفنجي لجانب الثلاجة توطئة ليربطه بخيط. مثل باب عُش البط والدواجن. مارسنا كافة

أنواع طُرق الغلق: بدءًا من الغلق الهادئ بأطراف الأصابع. الأرجحة بأطراف الأصابع مع نصب يدك كالشبكة لتتلقف الباب العائد الذي يرفض أن يلتئم مفضلًا تسكعه الغريب. تتحول أرجحتك الهادئة مع التكرار ومسك الأعصاب لمسألة اعتيادية عبثية. وكأنك تؤرجح طفلك الصغير في يوم مشمس. فاقدًا بالتدريج ذلك الأمل الذي راودك في البداية: أنه يمكنك غلق باب ثلاجة بيتكم بصورة طبيعية مثل كل الطبيعيين في العالم. ثم نزولًا إلى أقصى درجات الغلق مع فقد الأعصاب والرفس بالقدم. وهذا التطور السلوكي لمسألة غلق باب الثلاجة كان يمكن أن يتم في المرة الواحدة تبعًا لنشاط إحلال فقاعات الهواء في الإطار "الكاوتش" الأبيض.

مرة بعد مرة. تكوَّن لديَّ انطباع أن العائلة السعيدة هم من يمتلكون ثلاجة لا يُفتح بابها من تلقاء نفسه. تحديدًا.. عائلة الأستاذ حسونة.

سكنوا عندنا. عائلة المدرسين كما كنا نسميهم. الأب والأم المدرسين بالمدرسة القريبة وثلاث بنات كن يلعبن أيضًا -بوحي وظيفة والديهما- لعبة طفولتهما كمدرسات. وولد وحيد منشق عنهم في عفرتته وكراهيته للدراسة. كان يبيع لي خلسة البقايا الدائرية الصغيرة الورقية من خرامة الورق الخاصة بأبيه المدرس. لأنفخها في الهواء من فوق السطح متوهمًا أنني ملك الثلج (هو من علمني اللعبة. تلك اللحظات الرائعة لطفل يتوهم انه يغير الدنيا بنفخة من فمه). فيما بعد... رغم تأكيدات أبي أنهم لن يمكثوا عندنا أكثر من عام واحد لأن بيتهم في البلد على وشك الانتهاء.

استمروا. سنة تلو الأخرى. يحميهم قانون الإسكان القديم الشبيه بالتملك. وحجة أنهم لم يتموا بناء بيتهم في البلد. هكذا أدرك أبي أنه أخطأ خطأ عمره وأنه غرس لأولاده مسمار جحا. و ظل أبي مع كل إيجار شهري يتجدد أمله ويأسه وندمه... هكذا في دورة مغلقة.

أول مرة ضرب فيها أبي الأستاذ حسونة -الأب المدرس- على خلفية سكنهم عندنا كانت على بسطة السلم أمام باب شقتهم المؤجرة. بعد ذلك صار موقع المعركة يتغير كل مرة لداخل شقتهم. لا أنسى أبدًا طعم الفخر الذي لا يوازيه شيء في الدنيا؛ أن يضرب أبوك الناس. بـ"الصديري" الأبيض القصير ذي الجيوب الصغيرة للغاية التي لا تستطيع أن تحشر فيها إصبعين سويًا، وصفَّي الأزرار المستعارة على جانب. و"الشورت" الأبيض الطويل الواسع الذي يرتديه أبي دائمًا فوق طقم الصوف خلاف كل الناس دون أن أعلم فقهه في ذلك. يقتحم أبي شقتهم ونحن خلفه مثل عساكر خلف ضابطهم المقدام. نصطنع صخبًا كافيًا أثناء صعود السُلَّم؛ ليستعدوا لاستقبال هجومنا. يدفعُ الباب الموارب. فلم يكن أحد في ذلك الوقت يغلق بابه إلا قبل النوم. يحتمي أفراد كل عائلة خلف عائلها. ومن خلف ظهره تبدأ من ناحيتنا المناوشات الكلامية الفرعية. خلف خط الأصوات التمهيدية للمعركة

الأصلية. والتي تبدأ دائمًا بإلقاء الاتهامات من جانب أبي -الطرف القوي- ورد الأستاذ حسونة على الاتهامات كطرف ضعيف. دون أن يغير ذلك من النهاية المتوقعة شيئًا.

هكذا يقوم أبي بتسخين نفسه للوصول إلى الدرجة القصوى، ومن ثم تبدأ المعركة وتصرخ النساء، لعلي تلقيت أول دروسي في السياسة من هذه الأحداث، الحق الأصلي والحق المكتسب وسياسة حرق الأرض: فأثناء المناوشة الكلامية كنا نحتل نصف الصالة، تصبح أرضًا تابعة لنا طوال فترة المعركة. بأثاثها اللامع الذي لا تسمع في عمق أخشابه صوت النمل الأبيض وهو يقرضه. والذي نتعمد أنا وإخوتي إلحاق الضرر به. والسجاد الذي نتعمد توسيخه بأحذيتنا المُعدَّة بالطين مسبقًا. وثلاجتهم التي كنت أنا الوحيد دائمًا الذي يجد لذة خاصة في تخريبها. لسبب لم أدركه. أو أدركته ولكني لم أستطع ضبط نفسي حياله: أقوم بفتح الباب ثم أغلقه بعنف متسببًا في صوت تفريغ

هوائي عنيف: بوف! وتخشخشِ زجاجات الماء البارد على أرففها. ودائمًا لا يُفزَع رجلُ الثلاجة الصغير الخفي ممارسًا واجبه على أكمل وجه؛ لماذا لا وهو يأكل ما لذ وطاب من الطعام كما أرى بعيني الأطباق الممتلئة - ممتلئًا بالحنق- خلال السحابات الثلجية ونور الثلاجة الخافت؟!

فقد أبي من أزرار الصديري عددًا لا بأس به حتى أدركهما التعقل مع الشيخوخة -الأزرار التي كانوا يلتقطونها ويضعونها في زهرية زجاجية بتلقائية وعفوية دون أن يتخلصوا منها: ليعيدوها لنا يوم رحيلهم- لم يحدث في يوم من الأيام أن شكاه الأستاذ حسونة للشرطة. أو اشتد عليه أبي في الضرب كضرب الكراهية.

علاقاتنا نحن الصغار استمرت في الخلفية لا تشوبها أدنى شائبة. في أيام الامتحانات ودون اتفاق مسبق بين أهالينا. دون تذمر أو عداوة. نصعد عندهم مع الكتب مستغلين جو معيشتهم الهادئ في المذاكرة.

مع التعود صرت كأنني واحد منهم. صرت أتجول في غرفهم كأني أحد أبنائهم. غرفنا في واقع الأمر: نفس التوزيع الجغرافي عندنا بالأسفل. ولكن اكسسواراتهم الحياتية تجعلني أشعر كأنني انتقلت إلى بيت آخر. تصادف أكثر من مرة أنني دخلت حمامهم. وهناك سمعت الأصوات. مثل قبيلة من الغنم في حالة هياج أو القطط المتشاكسة. كان كلامًا غير مفهوم. كمادة أولية خام للغة. شيء حيواني تمامًا مختلف عن الصمت الممتد خلفي الذي يجبرني لكتم صوت بولي بقدر الإمكان: موجهًا الرشاش إلى الجوانب الزلقة وليس لعمق الماء عند توقف الأصوات.

أثارت الأصوات خيالي لأيام كثيرة. وحسبتهم جن يسكنون مواسير الصرف. تبين لي فيما بعد أنهم -عائلة الأستاذ حسونة- يعلمون عن تلك الأصوات. تلك الابتسامات الغامضة والنظرات التي يتبادلونها في مكر عند سماع أحد تلك الأصوات تعبر الحمام إلى الصالة أثناء جلوسي معهم. ثم ومضت تلك الفكرة في ذهني.

لعله سبب رفضهم ترك الشقة؛ قبيلة الجن التي تؤاخيهم وتلبي مطالبهم، ولا بد أن ذلك أيضًا هو سبب ارتفاع حالتهم المعيشية رغم أنهم -كما يقول أبي- موظفون. كدتُ أن أخبر أبي؛ ليأتي بمن يطرد الجن من المواسير فيتركوا الشقة وتنتهي مشكلة حياته، لكني استمرَرْت في سماعها بوحي من شك داخلي، في أحد المرات في عمق المواسير استطعت أن أميز نوعًا من الحوار، ولسبب ما نزلت بعدها مباشرة إلى شقتنا. بعد خطوتين من الباب توقفت مذهولًا، تدفق الحوار مثل تجربة إذاعية لتنقية الصوت، فهمت الآن... إنها أصواتنا.

بعد ذلك اليوم -أذكر- توقفتُ عن الذهاب للمذاكرة مع أولاد الأستاذ حسونة، استقر في داخلي مزيج من الخجل والغضب، هؤلاء الساكنون فوقنا، الموظفون كما يسميهم أبي، الجِياع الذين نعطيهم أول كل حصاد جوال أرز نقول فيما بيننا أنها صدقة ويحسبونها هدية... وكلما ضبطت نفسي بعدها أتكلم

بصوت عال أفرمل. لعل أفراد عائلتي غضبوا مني لوقت طويل دون أن يعرفوا السبب. الصغير الذي جاء بعد زمن طويل لتعليمهم أصول الكلام وإخماد أصواتهم. تغيرت نظرتي إلى بيتنا وطريقة معيشتنا. لم أكن أتصور يومًا أننا نعيش هكذا لأننا فقراء. قد ينقصنا دهانات الطبقة المتوسطة (الرقي في السلوك، تعليق صور للحيوانات الأليفة على الجدران، الاهتمام بشيخوخة الأشياء: بالتحديد الثلاجة التي صارت أشد حساسية من رجل عجوز لأقل التغيرات. ينفتح بابها من تلقاء نفسه عند مرور طائرة عاليًا في السماء واهتزاز زجاج النوافذ في إطاراته، أو حتى تغير ضغط الهواء حولها عند فتح الباب الخارجي. ينقصنا الهندام بدلًا من صرر الملابس القديمة التي تملك أمي منها مخزونًا لا ينتهي لكافة الأعمار. استمرت في توريثها -العادة والملابس- إلى بعض إخوتي البنات. السراويل الضيقة عند الفخذين الطويلة التي اشتروها أكبر من أعمارنا: لينتفع بها أكثر من جيل. فنضطر إلى طيها عدة طيات

مع عذاب الانحناء كل فترة لإعادة الطي: ليُفرض علينا طابع وقار إجباري؛ نفس المبدأ الذي يجعلهم يشترون حقيبة كبيرة للدراسة منذ السنة الأولى اعتقادًا أن الكتب تزداد كل سنة، دون وضع أي حساب لاستهلاك الجلد الذي يتم رتقه، والجزء الميكانيكي الذي يتم -بعد السنة الأولى- استبدال خيطَ دوبار خشن تمامًا به، مثل ثلاجتنا وباب ثلاجتنا، ينقصنا ترتيب حياتنا أكثر من ذلك، ولم يكن ينقصنا المال.

أتذكر الآن أني لم أنسب نفسي مرة إلى الحجم الحقيقي لعائلتي، على العكس كان لي لحظات من نوبات التفاخر التي كانت تجتاحنا نحن الصغار بفهم للدنيا بغير مقاييس الكبار، وإن تلوثت بها... كان سؤالاً للمدرس عن عدد العائلات التي تأكل اللحم كل يوم كمعيار للغنى وبفخر نسبت عائلتي إلى تلك العائلات فانطلقت عاصفة من الضحك في الفصل، فيما بعد - ليس على مدى ساعة ونصف مدة حصتَي الزراعة، بل على مدى عمري كله- اهتزت قناعة الطفل الصغير

الذي كنته: فلم يكن اللحم الذي نأكله كل يوم هو المعلَّق في محالِّ الجزارين المغطى بشاش أبيض وذباب، بل هو لحم الحيوانات المنزلية التي تربي أمي منها بنجاح جحافل كاملة. والذي لم تكن أكلة كل يوم مقياسًا للغنى.

بقيت نظرات عائلة الأستاذ حسونة الساخرة صعبة الزوال كقشور السمك النيِّء على يدي، تدمرت علاقتي بالآخرين بطريقة أشبه بالحساسية. قراءة ما خلف تيار الحوار العادي، أحيانًا حتى بدون حوار، كالحاسة السادسة. مثل كلب الشارع الذي يهرب منك عندما تنحني على الأرض. في زياراتي لأختي الكبرى المتزوجة وزوجها الموظف أيضًا، والذي لم يكف طيلة حياته الوظيفية عن تجديد شقته الصغيرة، إسقاط الدهان لأتفه الأسباب في نظرنا، ظهور ثآليل من نشع الماء بعد موسم الشتاء، تغيير الأثاث مرة بعد مرة لمجرد رداءة اللون أو اعتياده عليه، الحصول على مميزات الأجهزة الكهربائية الجديدة رغم كفاءة الموجودة عنده،

كنت أسمع كلام أبي والموجه لأمي ، تذمره من طريقتهم في الإنفاق ، ومن وجودهم في بيت العائلة حتى الآن وعدم استطاعتهم الانفراد ببيت خاص.

ولسبب لا أعلمه كان يتملكني نفس الإحساس الذي يتملكني عند وجودي في شقة عائلة الأستاذ حسونة بعد ذلك اليوم. لعل السبب في ذلك هو زوج أختي وجمل حواراته الملغمة؛ في أحد هذه الحوارات ذُكر أمامي حادث منزلي بسيط حدث لأمي؛ في حوار غاضب لها مع خاطب أختي الأخرى انهار ذراع مقعد في غرفة الإستقبال إثر ضربة قوية من قبضة أمي. تناثر على إثرها فتات الخشب والذرور الأبيض ليعفر الوجوه... فكرت حينها كيف سمحتْ أختي لنفسها أن تروي هذه الحادثة المخزية لزوجها؟! وآلمني أن موضوعات فقرنا أصبحت مادة تسري بها أختي على زوجها. قال زوجها حينئذ وبصورة عارضة إن غرفة الضيافة عنده لم يضع فيها أثاثًا إلا وسكن فيه النمل الأبيض. قالها بعفوية وتلقيتُها بعفوية. بينما لمحت في

عيني أختي نظرات تحذيرية نبهتني أكثر مما نبهت زوجها، ولكني لم أدرك على الفور السبب الذي جعله يذكر غرفة النمل الأبيض عنده في حوار خاص بغرفة الضيافة عندنا. فقط عندما نظرت في عينه رأيت في عدستها- التي يبدو بؤبؤها مثل نيزك سقط في أرض طمأنينتي- الأستاذ حسونة وأولاد الأستاذ حسونة. ومثل غرف تُضاء واحدة تلو الأخرى بدأت أتذكر، مستدعيًا المناطق المعتمة من ذاكرتي. كراسي الأنتريه التي مرت على غرفة النمل الأبيض عند زوج أختي ثم تخلصوا منها، والثلاجة وارد المصانع الحربية التي كانت ملكًا له قبل أن تنتقل إلينا! وحتى السراويل موضة الستينات التي ضاقت على زوج أختي فورثناها؛ شحذناها... كانت حياة كاملة زائفة.

الحوار بأكمله ترسب في زاوية مهملة من ذاكرتي متوهمًا أنني نسيته ولكنه بقي، تمامًا مثل عضو مكسور لا تتذكر ألمه إلا عند تحريكه بعد ذلك. وبنفس الطريقة التي كنت أتجاهل بها الأستاذ حسونة وأولاده

عند صعودهم خلفي على السلم، صرت أتجاهل زوج أختي الكبيرة في المسجد والطريق، قلت إنها ليست أول قطيعة في حياتي تتم دون سبب.

استُخدمتْ الثلاجةُ -بعد انتهاء حياتها كثلاجة في بيتنا- كمخزن لكتب الدراسة القديمة، توقفتُ أنا عن الذهاب إلى بيت أختي إلا في الأحوال القهرية.

غادر الأستاذ حسونة وأولاده الشقة ذات يوم حزين، ما أبسط النهايات! ولكن طعم تلك الأيام ظل في فمي، وظلت قشور السمك في يدي كأنها تنبت تحت جلدي، وتطفر للخارج، وتنتقل لأيدي جميع من يصافحونني.

# حكاية أشياء البحر

القصة حائزة على جائزة محمود أمين العالم للقصة القصيرة – الدورة الأولى

يقع بيتنا على الماء. لبيتنا حكاياته مع الماء، الحزينة والمفرحة. أول ما تعلمته عنه أنه خطر وغير مأمون. ذلك المسطح المائي الصامت الذي لا يتجاوز عرضه أربعة أمتار. وينشط في مواسم ري المحاصيل فيحمل ورد النيل وجثث القتلى من بلاد بعيدة. أخذ أول إخوتي فغرق فيه ورغم كثرة عددنا إلا أن أمي حزنت بشدة، ومنذ ذلك الحين سُد الباب الخلفي ولم يُفتح. أبي فقط هو المسموح له بفتحه ليصطاد السمك جالسًا على كرسي من الجلد، مُنتزَع من سيارة غرقت هي أيضًا.

كانت هناك وظيفة أخرى للماء غير ابتلاع الصغار، وإغراق السيارات التي تسقط فيه، وإيواء الجن الذي يخرج ليلًا ليدق على الباب... وظيفة عرفتها من أبي، وهي حمل الأشياء التي يرسلها لنا الآخرون، كالبريد. أخبرني أبي بذلك عندما أخرج من الماء عودًا مليئًا بأكواز الذرة الناضجة، وسألته عن صاحبه فقال لي إن عمي أرسله لنا، عمي الذي لم أكن أذكر عنه سوى زيارة وحيدة وذقنه النابتة، وإصراره على تشويكي بها.

- عمك يسكن في الناحية الأخرى من البحر، أحيانًا يرسل لي الرسائل في زجاجات مسدودة حتى لا تبتل بالماء.

مثل القراصنة، هكذا قلت في نفسي. في الشهر التالي أرسل عمي عشًّا عائمًا من القش مليئًا ببيض الإوز، علمت ذلك رغم أننا لم نربِّ الإوز، علمت ذلك من كبر حجمه، ولأنه أرسل لنا إوزة بعد ذلك. لم يكد الشهر يمر حتى أرسل لي ولسائر إخوتي قميصًا وبنطالًا قال لي أبي إنهما لابنه الكبير وقد ضاقا عليه، نسي أبي

أنه أخبرني أن عمي لم يتزوج حتى الآن... عثرتُ في جيب البنطلون على ضرس كبير. لم أشك لحظة أنه يخصه. فوضعته في علبة كبريت في مكان سري.

عمومًا.. رابطت فوق السطح أراقب الماء. بعض الهدايا التي أرسلها عمي لم ينتبه لها أبي، ولكني أخبرته بها فقال لي أن عمي يُرسل الكثير، ولكننا ننام ونغفل، واصطيادها كلها فوق المستطاع. تآكلَ قلبي من فداحة الخسارة. ولاحظ أبي أنني لم أعد أترك السطح: فأخبرني أن أهوِّن على نفسي لأن الهدايا تعود إليه إذا لم نلتقطها فيعيد إرسالها لنا.

لم يتوقف عمي عن إرسال الملابس والأحذية المستعملة حتى في الأوقات التي يجف فيها الماء كثيرًا ويصبح العبور للناحية الأخرى من الماء ميسورًا. ويحلو لنا اصطياد الكابوريا والقراميط بأيدينا من برك الماء الطينية المتبقية. والعبور لماكينة الماء لنبصق على بطيخة المدخنة المعدنية الساخنة التي تقول في الهواء هكذا "بوم بوم". ونظل نعد حتى تتبخر البصقة تمامًا.

لم يتوقف كذلك عن نسيان أشيائه الصغيرة في جيوب الملابس التي يرسلها. كذا لم أتوقف عن حفظها في أماكني السرية. أرسل بطاطين الشتاء العطنة الرائحة، وزجاجات الزيت، وأكياس الأرز، والسكر... المفاجأة أن عمي أرسل ذات يوم -ليس عن طريق الماء، وإنما عن طريق أحد الجيران الذين أتوا من الخارج- ملابسَ جديدة تماماً، ولكنها أوسع من مقاسنا فاضطُرت أمي إلى وضعها تحت مرتبة سريرها حتى نكبر. عندما سألت أختي الكبيرة لماذا وعمي يرسل لنا أول كل شهر الملابس أخطأ هذه المرة؟ فقالت لي إن الرجال الذين يأتون أول كل شهر بالأكياس السوداء، لهم علاقة بمجيء الأشياء وليس عمي! عندما أوشكت أن أضربها تراجعت. لا بد أن أبي لم يخبرها برسائل البحر لأنها بنت.

سألت أبي ذات مرة في حيرة:

- هل يسكن عمي في الخارج؟

- نعم.

- وهل الخارج يقع في بداية الماء؟

أفهمني أبي، الماء واحد في كل الدنيا، الأنهار والبحار والتُّرع والمصارف كلها حفرها جن سيدنا سليمان وهو ميت على العصا، ولولا السوسة التي أكلت العصا لصار العالم كله مائيًّا. لأيام كثيرة وقعت في سحر الحكاية، كيف فتح الجن أفواههم وصاروا يأكلون اليابسة؟! غضبتُ من السوسة: فلولاها لكنا الآن أسماكًا تسبح في الدنيا، ولَمَا غرق أخي؛ لأنه حينذاك كان سيصبح له خياشيم، ومن وقتها وأنا أقتل كل سوسة أراها، وأشم الرائحة النفاذة التي تعلق بأصابعي، وأجري لأخبر أمي لتضحك وتنكش شعري بأصابعها الدافئة التي تجعلني أقشعر كأني انتهيت من التبول في ليلة باردة، وأحس بالأمان.

ولكن -حتى بعد أن قتلتُ كل السوس في البيت- ظلَّتْ أمي حزينة؛ لأنها دائمًا تجد ما تحزن عليه، وإن لم تجد ما تحزن عليه.. تتصور حدوث شيء ستحزن عليه: تتصور وقوعنا في الماء الخطرِ المليء بالعفاريت، أو بئر ماكينة الماء الكبيرة، تخشى من سيارات الإسفلت

الخطرة؛ المسرعة التي تصدم من لا ينظر شمالًا ويمينًا عند العبور. والثقيلة التي تهز البيت؛ فترفع عينها إلى السقف كأنها تسنده بعينها... تخشى حتى من الضحك كأنها تستكثر الفرح على نفسها؛ فتمسح فمها. وتستغفر ربنا وتقول: خير. اللهم اجعله خير.

ولكن هذه الأيام بالذات لم تعد تتوقف عن البكاء. خاصة وهي تُقلب في وعاء الطبخ. وحتى أبي أصابته العدوى. ولكن بكاءه صامت. وإن كانت دموعه كثيرة. حتى لتبلل ياقته وصدره! وعندما أقتربُ منه يجذبني إلى حِضنه ويطبطب على ظهري كأنني أنا الباكي... أخي شرح لي: عمُّك مات في الغربة و لا نملك المال لإحضاره ودفنه هنا؛ لأننا فقراء...

جريت إلى مكاني السري. فتحت علبة الكبريت. في اللحظة التالية كنت أُسقط الضرس في يد أبي.

– "ما هذا؟" سألني أبي وهو يمسح دموعه.

– "ضرس عمي." شرحت له: "نستطيع أن ندفنه هنا."

ولكني عدت بعد ذلك وسألت نفسي لماذا لم يمت عمي في الماء فيأتي إلينا كما تأتي هداياه وكما تمر علينا الجثث الأخرى مع فوران البحر؟ جثث الرجال تأتي دائمًا على ظهرها، وجثث النساء على وجهها. وحتى لو قلبتها تعود كما كانت؛ وهذا من ستر الميت. منذ جاءني ذلك الخاطر توقفت عن مراقبة الماء، وعندما أصعد للسطح مع أمي أغمض عيني بقوة وأتشبث بيدها؛ لعل الماء يحمل ذات مرة جثة عمي منتفخة وزرقاء وتُشم رائحتها ولو كنت في أبعد غرفة بالبيت. أتخيله في الشمس وضوء القمر والليالي المظلمة القاتمة. قادمًا إلينا على ظهره. أتخيل هذا فينمو الثلج في أمعائي وأدفس وجهي في عش البطاطين تاركًا ثقبًا للتنفس، البطاطين التي لم تتوقف عن المجيء حتى بعد موت عمي.

# المستشار أو
# البيت الذي سكنته العفاريت

استدعاني -ذات صباح- المدير العام لمؤسسة المصانع التي أعمل بها. عندما دخلت وجدته مشغولًا بالحديث في الهاتف، فوقفت تأدبًا خلف الباب حتى أشار إليَّ بالجلوس مندهشًا.

تأملت عناصر الغرفة الواسعة: الكراسي الإسفنجية الدسمة، الكؤوس التي حصلت عليها المؤسسة في مناسبات مختلفة، دولاب الملفات، التكييف الذي كان يئز بصوت مخدر للأعصاب بينما تتدفق منه كتل الهواء البارد الرطب... حتى تمنيت أن أظل هكذا حتى تبرد أعضائي من السير في الشمس.

وضعَ سماعة الهاتف، ثم بحث عن ورقة ما أمامه على المكتب لعدة دقائق، وعندما نظر إليَّ بدا عليه أنه يجاهد ليتذكر سبب استدعائي.

– اسمع يا سيدي. -قالها فجأة!- عندي بيت في البلد...

ولكن جرس الهاتف لم يدعه يتمم جملته، قلت لنفسي لا بد أنه بيت العائلة القديم الذي حصل عليه من إخوته بعد معارك حكي لنا عنها أثناء جلوسه معنا في المكتب، وهو نفس البيت الذي طلبت منه أخته الصغرى مفتاحَه لمدة شهر واحد؛ لِتُزوج ابنها القادم من عمله بالخارج، فرفضَ... رغم أنها الوحيدة التي وقفت معه ضد إخوته! حكي لنا هذه الأحداث منفصلة وهو يشرب الشاي معنا ونسي أنه حكاها كعادته.

ورغم أن لديه هذا البيت وشقتين بالقاهرة والإسكندرية.. لا يسكن في أي من الأماكن الثلاثة، بل يسكن في شقة ملك المؤسسة ذات الفواتير المجانية: الماء، والكهرباء، والغاز... حتى الهاتف! لتضمن خدماته

تحت التصرف، والمتمثلة في التسكع دون هدف، ومضايقة النائمين في جحورهم -بطريقته العجيبة: فتح الباب وإضاءة النور والانصراف دون كلمة!- والسقوط على الناس أثناء الأكل ليحظى بـ"ضيافة" أو لقمة يسد بها جوع النهار -هائمًا كغنم أهل الله، لا يصده أحد.

لم يكف جرس الهاتف عن مقاطعته طيلة ساعة حكي لي خلالها عن الموضوع، البيت القديم الخالي من ساكنيه، اتصل به مَن أخبره أن الأصوات تُسمع منه: أصوات تكسر الأشياء، وسقوط زجاج على الأرض، وانغلاق الأبواب بشدة.. وعندما يدخلون يجدون كل شيء سليمًا في مكانه!

- باختصار.. البيت فيه عفاريت، وبصفتك شيخ...

هكذا قال وهو يرسم لحية وهمية أسفل ذقنه!

- عايزينك تطردها.

تذكرت بحثي عن شقة لعائلتي الصغيرة: بعد أن ضاق علينا بيت العائلة، ودورة المياه المشتركة،

والفحيح خلف بابها. والتقلب الحذر فوق السرير حتى لا تفضح أخشاب "الملَّة" لحظاتنا الحميمة.

سُقط في يدي. مدركًا عبث محاولاتي لإفهامه أنني لا اعرف عن هذه الأشياء. وأن العفاريت لو سكنت بيتي شخصيًا فلن أحرك إصبعي لطردها؛ إذ كانت هذه طريقتَه للحصول على خدمات مجانية. ألمْ يُصرّ على إصلاح المنبه عند زميلي في العمل رغم أن أخيه الساعاتي قد سافر للسعودية منذ شهور واضطر في النهاية -زميلي- إلى إصلاحها من جيبه الخاص؟!

هذا فخ لا أستطيع التملص منه؛ إذ إن رقبتي في يده؛ وتقرير صلاحيتي للعمل -الذي يُجدد لي لفترة أخرى من العمل بالمؤسسة- يمر من تحت يده. ويستطيع أن يحجبه. تمامًا كما يهش أحدنا ذبابة من على وجهه! فأجلسُ في البيت ولا أجد ما أنفقه على عائلتي. وكنت قد حصلت على هذا العمل بعد وساطة زميل عمي الذي قُتل شابًا في الحرب. عقد موسمي يُجدد كل ستة أشهر. عقد هو والسبة سواء بسواء لدرجة أن زملائي

أصحاب العقود الدائمة عندما أُغضبهم ينادونني ب "الموسمي". الأمر الذي يؤلمني كثيرًا، ولكن كان هذا منذ ثلاث سنوات. ذهبَتْ أيام وجاءت أيام، وأُحِيلَ من أُحِيلَ إلى المعاش، ومات القليل قبل خروجهم، وأتى بدلًا عنهم الكثيرون، موسميون مثلي، والبعض -القليل جدًّا ممن ليس لديهم أعمام ماتوا في الحرب- يأتون بعقد دائم، ولم يَعُد أحد يذكر هذا اللفظ، وسمعت أن هذا نظامًا عامًّا في كل المؤسسات بالدولة.

أخبرته أن يقوم بتشغيل المذياع على محطة القرآن الكريم طوال الوقت في البيت، وسنرى النتائج... مكثت قليلًا أحكي له عن عالم الجن بقدر ما أسعفتني ذاكرتي، وعندما نهضتُ صافحني وشد على يدي بحبور.

قال لي زميلي في العمل (ذو العقد الدائم ) مبتسمًا بعدما حكيت له:

- صار لك قدم عند الرئاسة!

ثم عاد متوجسًا بعدما زالت ابتسامته:

- كن على حذر. فهذا الرجل لا يرى أبعد من قوائم كرسيه.

قلتُ في سري إن الذي يده في الماء ليس كمن يده في النار! اجتهدتُ في القراءة ليلًا. صحيحٌ أن عينيَّ بدأتا تؤلمَنَنِي -وأنا الذي لم أقرأ هكذا منذ تركت الجامعة- ولكني عزيتُ نفسي بأنني حتى لو لم أجلب الخير لنفسي وعائلتي.. فإنني أدفع عنهم الشر المؤكد. ولكن لا أخفي أن آمالي في التعيين بعقد دائم قد انتعشت من جديد بعد موت طويل ويائس. لم يعد المدير في حاجة لاستدعائي: إذ إنني صرت أذهب إليه كل فترة بعلاج جديد: كشرائط الرقية الشرعية، وماء معدني مقروء عليه آيات من القرآن يرشه في جوانب البيت... ولدَى وصولي في إحدى المرات عند باب الشقة حاملًا زجاجات الماء المعدني.. استقبلتني زوجتي ولم تَخفَ عليَّ نظرتُها إلى الزجاجات. تنهدَتْ قائلة:

–وأنت الذي لم تأتِ لابنك الرضيع بزجاجة ماء نظيف كهذه مرة في حياتك، وتركتَه يشرب من وسخ المواسير الصدئة!

جربت كل شيء، وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف الأصوات ولا التكسُّر الوهمي للأشياء، حتى صارت سمعة البيت في الحضيض، المدير مستاءً صار يسمي محاولاتي "ألاعيبك التي لا تصلح حتى لطرد الذباب". هاجمني الأرق والأحلام المفزعة، ولأول مرة في حياتي استيقظت وأنا على وشك التبول في ملابسي.

المدير بدوره صار دائمَ الشرود، عصبيًّا لبعض الوقت، فاترًا عندما أحدثه، لم أكن وحدي الذي لاحظ ذلك، كل من في المؤسسة أخذ يتكلم عن الموضوع، والأخبار لا تختبئ، فالميعاد السنوي للتجديد لمدير مؤسستنا قد حان؛ إذ إنه أحيلَ إلى المعاش منذ أربع سنوات، وهذا الموضوع يشغل تفكيره كل عام في نفس الفترة.

أثناء وجودي معه كانت تأتيه مكالمات ينظر خلالها إلى وجهي بتمعن، ويتكلم فيها بأسلوب برقيٍ مُشفَّر؛ كلمات مثل "نعم، آه، حتى هو؟، ودون سبب حتى؟، عظيم، وما العمل؟،... "، رجَّحتُ أنها (الوسايط) التي يدفعها للمكتب الرئيسي للتجديد له، علمت من طراطيش الكلام حولي أن المؤسسة ليست على ما يرام، وأن السبب في ذلك هو قلة العمالة الشابة بالعمل، رغم إحالة الكثير إلى المعاش، والسبب هو تجديد عقود العمل لمستشارين راتب أحدهم يكفي لتعيين عشرة مثلي على الأقل، مستشار: هذا المصطلح نفسه لم يظهر إلا في الأيام الأخيرة، أتوا فرادى أولًا واختُرِعت لهم الوظائف ليَشْغلوها، وفي أماكن مختلفة من أرض المؤسسة نبتت مكاتبهم من أكوام الرمل والإسمنت والطوب الأحمر، كنا نراهم -بعدما صاروا مجموعة- يتحركون ببطء شديد، جماعة كسرب من السمك، كأنهم يحافظون على وجودهم، يتعازمون على من سيسبق الآخر في الدخول من الأبواب التي يمرون منها،

ويقرؤون الجرائد بالعدسات المكبرة في مكاتبهم المُكيَّفة، وعندما نأتي متأخرين في الصلاة نجدهم قد شغلوا الصف الأول، فنتبادل النكات على تدينهم، في الغالب كان يؤمُّنا أحدهم ولا تكاد تمرُّ صلاة إلا ويسهو... فتختلط الآراء، ويقوم البعض فيعيدون الصلاة احتياطًا.

بعد إحدى المكالمات المتبادلة بالأسلوب البَرقيِّ.. فتح معي الموضوع كأنه يريد أن يمحو أثر المكالمة:

- يعتقد الناس أنني أريد أن أجدد! يكون في علمك.. كانت هذه هي المرة الأخيرة ولن تتكرر.

مضى في حديث طويل... مُجمَله أنه زهد في المكان، وأصيب بالملل من إعطاء الأوامر، والمسئولية الضخمة التي أصابته في أربع السنوات الأخيرة بأمراض لم يُصَب بها طيلة عمره، وأن الفُلوس في المصرف المالي تلد له كل عام ما يكفيه وزيادة، وقد آن الأوان ليفسح المجال للأجيال الجديدة، ويصلي الفجر في جماعة، ويعيد الصِّلات القديمة التي انقطعت... راقبْتُ وجهه وهو

يتكلم. تحمَّستُ حتى كادت عينايَ تدمعان، ثم فَتُرتْ مشاعري بعدما غادرْتُ المكتب وقد زال عني السحر. هل يملك القدرةَ على الكذب المستمر حتى يصدق نفسَه، وعندما يأتي التجديد له لسنة أخرى ينبعث كالعنقاء من رمادها؟!

ولم يطُل الأمر، انقضَّ -ذات يوم- خلال الباب زميلي الدائم، وأخبرني أن مدير مؤسستنا لم يُجدد له. أحزنني الخبر بقدر ما أسعدني؛ أما عن حقيقة سعادتي أو حزني فلم أعد أفهمها، كأنني أطفو على السطح بلا مبالاة، كأُخطُبوط ميت. وحرصنا على الذهاب إلى المدير الجديد -والذي لم يكن من أبناء المؤسسة- وتهنئته، والفوز بنصيبنا من "البنبون".

فيما بعد.. انتشرتْ التفاصيل: الجلسة المغلقة الثنائية بين المدير والعضو المنتدب، السرِّية -أو هكذا أُريدَ لها، والتوسلات، والدموع، والرفض التام، والوساطات التي اتصلت للضغط، ثم الورقة الأخيرة التي أُخرِجَت لإنقاذ الموقف... المدير العام الذي تحول

إلى مستشار بنصف المرتب ودون امتيازات. وتوقعْنا الرفض. ولكننا -ذات يوم- فوجِئنا بالطوب الأحمر والرمل والإسمنت. وسرعان ما بزغ مكتب المستشار الجديد إلى الوجود بالمُكيِّف المعتاد.

حرصتُ على زيارته في مكانه الجديد. لم نتحدث عن البيت. مشكلتنا القديمة. تحدَّثَ عن رضاه بهذا العمل كجزء من خطته لطرد المُحتَلِّ الذي أخذ مكتبه وصلاحياته. قلت له صادقًا:

- كلُّ يوم جديد يأتي أسوأُ من الذي فات.

ولكن من هو أسوأ من مديرنا القديم. على الأقل كان يردُّه كوبُ الشاي وأصابع السميط. أما الجديد فيعمل لمصلحة الكبار فقط.

عندما جاءتني فرصة السفر.. قلتُ لزوجتي بعد حديث طويل ودموع وقلق:

- العبودية هنا وهناك. على الأقل الفرصة لا زالت موجودة. والأحوال قد تتغير.

قالت:

- وجودك معنا بالدنيا ولكن...

فأسكتُّ تسلسل الحوار بنظرة من عيني... ولكني صارحتُه في مكتبه في اليوم التالي بالموقف كله. ظل صامتًا لوقت طويل، حتى ظننتُ أنه نائم وعيناه مفتوحتان، وعندما قمت لأنصرف لم يتحرك. منذ ذلك اليوم لم أعد أزوره، ولكني كنتُ أراه في المرات النادرة التي يترك مكتبه، بقميصه "المكسر" من النوم على الأرض، ومقعدة بنطاله التي اتخذت لمعة الشمع من كثرة الجلوس على الكرسي.. يشيرُ إليَّ من بعيد بالسلام الصامت. هل لا زال يتذكر اسمي، لا بد أن الشيخوخة والراحة عصفتْ بذهنه، هكذا ظننتُ حتى حدث ما حدث.

جاءني خطاب الفصل ذو اللون الأصفر مختومًا بخاتم المؤسسة، لا بد أنه الفصل المعتاد الذي يتم كل ستة أشهر، ولكن الإشاعات التي أتتْ من الإدارة أن أحد قيادات المؤسسة أرسل "فاكس" بأسماء العمالة

الزائدة في المركز الرئيسي، وأنه قد تمت الموافقة على فسخ تعاقدات هذه الأسماء حتى يتبين وضعهم: حفاظًا على مال المؤسسة. عندما صعدت إلى مكتب الموارد البشرية.. وجدتُه ممتلئًا بوجوه أعرفها جيدًا، نفس الوجوه التي كنت أراها في الأعطال، تعملُ الليل والنهار لإنقاذ الموقف، صفق الموظف الغاضب بيده كأنه يهش مجموعة من العصافير... فسكتنا جميعًا، قال إن "الفاكس" قانونيٌّ تمامًا، وهو تحت يده ليضعه في عين (أتخن واحد فينا)، قلنا له نريد أن نراه، فقال إنه منعًا للشوشرة والجمهرة سيُريه لواحد فقط مِنّا، وأشارَ إليَّ من بينهم رغم أنني اكثرهم هزالًا، عندما انصرفوا أخرج "الفاكس" من ملفٍّ أمامه، ودسه تحت عيني ممسكًا به كأنني سأختطفه! قائلًا إن أمامي دقيقة واحدة، جرى بصري سريعًا على الأسماء المكتوبة، اسمي الثلاثي والذي كان أولها، والتقطتُ كلمات من نوع: "البطالة المقنعة، ودون عمل، وميزانية"... ، انتهت دقيقة الرجل بعد عشرين ثانية! فسحب الورقة ولكنها كانت كافية

لأرى الإمضاء الشهير والوحيد في الورقة. كان هو دون غيره؛ الرجل الذي ادخرته لموقف كهذا.

قلت لنفسي "نحن نعيش أيامًا غريبة". عاودني شعوري بالطفو. وكأن ما يحدث.. يحدثُ لغيري. قال لي زميلي:

- ضحك عليك الرجل: عملتَ عنده مستشارًا لطرد العفاريت، وعندما أصبح مستشارًا.. طردك أنت.

ثم قال معزيًا:

- سرعان ما ستعودون؛ فالمؤسسة تحتاجُكم.

قضيت بقية أيامي في المؤسسة دون عمل، فلم يكلِّفْني رؤسائي شفقة منهم على ما حدث لي. كنتُ أستعيد ذكريات ثلاث السنوات السابقة: المعاناة، والذل، والخوف من الطرد، والضياع، والأشياء التي انكسرت بداخلي ولن تعود. وعندما كنت أشعر

بالدموع، قريبة من حلقي. أُغلِق باب دورة المياه وأتدرَّب على البكاء دون صوت.

أثناء تَجوالي في المؤسسة مررتُ كثيرًا عليه، ولكني لم أرغب في رؤيته، وفي اليوم الأخير قررتُ أن أتحدث معه. دفعتُ الباب، كان مغلقًا من الداخل، ولا بد! دُرْتُ حتى وصلتُ للنافذة، دفعتُها فانفتحَتْ، وبقفزة واحدة صرتُ بالداخل، انصبَّ مخروطٌ من الشمس مُحمَّلٌ بالتراب فأضاءَ المكان، وجدتُه نائمًا في الركن بسنواته التي قاربت السبعين، ضئيلًا وهشًّا، مثل كومة من القش تكفيها شرارة واحدة لتشتعل، صفا مخروط الشمس من التراب، وسبحَتْ فيه ذبابة وحيدة، تَمزقَ شيءٌ بداخلي في جزء من الثانية، وتدفقَ الحِبر الداكن السامُ في عروقي، كنتُ مدركًا تمامًا لما سأفعله، منتظرًا حشدَ كل قواي في قبضة يدي، مثل طفل يتعلم الوقوف لأول مرة، بينما تزقزق في الخارج أول سنونوات الشتاء الوليد.

# أول طقوس العزلة

في عمله الذي يقبض منه أول كل شهر راتبًا محترمًا لم يكن ثمَّة مكاتب ولا غرف، بل دواليب: صفوف طويلة متوازية من الدواليب، ممرات منها، كل صباح يقف صاحب كل دولاب أمام دولابه ليخلع ملابسه ويضع أشياءه ويرتدي ملابس العمل، ليس زيًّا موحَّدًا، وإنما تشكيلة مهرجانية من الملابس المُستغنَى عنها: ملابس قديمة مهلهلة أو محترقة بالمكواة أو مبقعة ببقع صعبة الغسل، يبدون عند انصرافهم للعمل - انبعاثهم من بين الدواليب- كأنما خرجوا من بيوتهم على عجل لإطفاء حريق.

من بعيد تبدو الدواليب متشابهة، لون دهان رمادي تغير مع تغير الزمن، ومع طول المعاشرة تبدو الدواليب كما لو كانت تشبه أصحابها: طريقتهم في

التفكير. سلوكهم في الحياة... حتى نوع النشاط الذي يمارسونه بعد العمل. تبدأ بالكتابات التي لا يخلو منها باب دولاب: يتركون على معظمها -ليس للتعرف بل للتخليد- الاسم الثلاثي لصاحبها. أجيالٌ متعاقبة وأنواعٌ مختلفة من الأقلام. أكثرُ من اسم: لإحالة الأول إلى المعاش. بعضهم بسلوك فرعوني بحت ومتوارَث في تلافيف الكروموسومات يمارس عملية كشط انتقامية لاسم زميله السابق. كأنه يزيله من الوجود. أجزاء من رسائل: (جئت وانتظرتك حسب الاتفاق. فين فلوس الجمعية يا ضلالي؟. دعابات. رجع الجزمة لصاحبها. وخلِّ البنطلون،... ).

للدواليب وظائف لا تنتهي: تستخدم لعقد الصفقات. يوميًا في ساعات الراحة تنعقد وتنفض أمام دواليب بعينها تجمعاتٌ شرائية. دكاكين مُصغَّرة. مخازن بضاعة: (ملابس. وأحذية. ومستحضرات تجميل. وساعات يد. وصواعق للناموس. وأدوية بيطرية. ومنشطات جنسية. وعسل نحل. وكروت

شحن.... وهلم جرًا). أيضًا مخازن مؤقتة للوازم الطبخ المحلي: طماطم، وبصل، وثوم، وزيت... ويوجد بطبيعة الحال الفئران الرمادية المألوفة والصراصير. تستخدم الدواليب للتعارف واللقاء: فلان الذي يقع دولابه بعدي بأربعة دواليب، قابلني عند دولاب فلان.

فيما عدا الدواليب كانت صحراء من الماكينات والشمس الصريحة التي لا تجامل وزوابع التراب. شيء هام للغاية أن يكون لك دولاب، حتى إنه في أول عمله شرب "مَقْلَب" زملائه وصدق أنها تؤجر بالثمن.

أول ما نصَحوه به بعد أن شبعوا ضحكًا على وقوعه في المقلب: "لتجد لنفسك دولابًا"، ضرورة وظيفية لا تقل أهمية عن المجيء إلى العمل، أو لتقُل ضرورة حياتية في العمل الذي سيستهلك فيه أكثر من نصف عمره، كان من الأفضل لو تركوه بدون نصيحة: فيما بعد وعلى مدى سنوات طويلة ظلت مشكلة حياته: الدولاب.

بدا الأمر سهلًا في أوله. الحصول على دولاب خاص بأحد المُحالين إلى المعاش. كل ما كان عليه الانتظار: سنة تلو السنة... تعددت المشاوير من وإلى الإدارة. كَتَبَ كلَّ صيغة نصحوه بها من الاستعطاف إلى التهديد. ولا فتحة واحدة في الجدار. لا أمل حتى. بدا وكأن العاملين يُحالون إلى المعاش من باب غير باب المؤسسة. الصحيح أن معظمهم يستمرون بعد سن الستين - السن القانونية- فترة تلو الفترة مجاملة له. كأن استمراره حق طبيعي مكتسب. ثم كأنه يقطع إجازة على الشاطئ. ينصرف وقد سلم الدولاب لصاحب النصيب.

عشرات المحاولات الفاشلة.. حتى عرف الطرق التي يتم بها تبادل الدواليب من جيل إلى جيل في سرية تامة. فالتسليم القانوني على الورق كان يسبقه التسليم الفعلي قبله بكثير. بصورة ودية محكومة بكثير من العلاقات المعقدة والحسابات غير المفهومة له على الأقل: صِلات قرابة في أكثر من نصف الحالات. أما

البقية لم يكن بدون ثمن على ما يبدو، ولكن تنمية سرية لعلاقات وتملق وخدمات تهبط إلى مستوى غسل الأطباق مرورًا بهدايا رمزية وغير رمزية، ورغم أنه لم يهتم يومًا بالسياسة إلا أنه ذات مرة وحيدة انفعل توطئة ليشير بالملعقة التي يأكل بها إلى شاشة التلفاز متحدِّثًا إلى نفسه أكثر مما يتحدث إلى زوجته: "انظري، يتحدثون عن التوريث هنا أيضًا".

لم يكن ثمة أمل عنده على ما يبدو إن أراد الاحتفاظ ببقايا كرامته.. إلا في موت أحدهم موتًا فجائيًّا والاستيلاء القانوني على دولابه، على مدى مرات متباعدة حاول: يقرأ إعلان الوفاة، يحدد مكان الدولاب، القفل في جيبه، جاهز للانقضاض، ليجد أنه ليس سوى عربة "حنطور" تسابق صواريخَ عابرة للقارات: الدولاب الغنيمة يجد -قبل تعليق الإعلان، ربما قبل ذلك، قبل أن تبرد جثة صاحبه بكثير- مَن يكسر القفل ويقوم بجرد المحتويات في حضور لجنة -لم تحضر إلا على الورق- وتسليمها لأقارب المتوفَّى يدًا

بيد. الاقارب المُهيَّئين نفسيًّا للغفران. الزائر المُعزي المتأخر -صاحب الدولاب الجديد- يهبط عليهم ذات ظهيرة؛ حيث يكون قد انتهى للتو من إنهاء سلسلة التوقيعات على إذن الانصراف المفاجئ من العمل. مُبرِّرًا لأصحاب الإمضاءات: طوارئ. مهمة إنسانية... ليجدوه بينهم كعفريت العلبة يسلمهم أشياء مَيتهم ويشرح لهم الوضع. المتألمون بأعناق مائلة على أكتافهم في الصالات التي لا يغزوها الضوء؛ فيما يبدو ليس لجذب الستائر أمام الشبابيك. بل احترامًا لحزنهم. الحوار... نفس التكنيك في البداية كأنهم يتواصونه فيما بينهم. الدولاب الخاص بالعمل والذي يجب ألَّا يحتوي إلا على أشياء العمل: العدة. المفكات. المفاتيح. لا على... أشار بيده إلى الأشياء التي أحضرها. المكومة المشعة التي مات صاحبها. بينما أشياء العمل: العهدة التي في الأصل مملوكة للمؤسسة ويجب إنهاء أوراقها قبل صرف مستحقاتكم الماليَّة وبدونها لن تحصلوا على مليم واحد. العهدة التي سُرِق بعضها وضاع بعضها

وانكسر الباقي. يكذب. والإداريون كما تعرفون في بلدنا لا يهتمون إلا بالورق. علاوة على ذلك لا يعرفون عن الداخل. متاهة الماكينات وصفوف الدواليب التي عاش فيها المرحوم وأنا.. على عاتقي. على خلفية علاقتي به. وهنا تكون الدمعة قد نضجت. أفلحت معها محاولات الاستحلاب الدؤوب. فتسقط.

لم يكن الأمر يخلو من خطورة: الانتهاك. وضياع أشياء واتهامه بضياعها. السقوط في متاهة إنهاء الورق. تكهين عَدة العمل وشراء غيرها إن لزم الأمر. كل شئ يهون من أجل أن يكون لك دولاب. أما الكارثةُ التي لا يمكن مجابهتها فهي ضياعُ أشياء شخصية خارج العمل. أقارب المتوفَّى الذين يصنعون من الحبة قبة. ويقيمون لها مأتمًا وعويلًا. عندئذ يكون التحويل للشئون القانونية حتميًّا. واكتشاف أن اللجنة لم تحضر. والمحتويات لم تُجرَّد. بل حُمِلتْ "هيلا بيلا" إلى حيث حُمِلت.

مرة أو مرتين وفاحت الرائحة. ثم صار منع الإستيلاء على دواليب المتوفين رسميًّا حتميًّا بورقة معلقة ومختومة. بعد أن كان نصيحةً يؤخذ بها وتُرد. ولمَ التعب؟ ليكن... وضع قفل جديد مرادف على الدولاب حتى يحضر أقارب المتوفى أو اللجنة أو توت عنخ آمون ما دام قفله موجودًا. والإعلان بالقلم الفلوماستر برقم التليفون مكتوبًا عليه.

كم عدد المرات التي حاول فيها أن يضع القفل الخاص به على دولاب متوفي من زملاء العمل؟. لا يستطيع التذكر. ما يتذكره. دائمًا كان يعود بالقفل في جيبه. أحيانًا يضع في فتحته نقطتين زيت ويفتحه ويغلقه: حتى لا تصدأ أجزاؤه الداخلية. ويضعه في دولاب البيت. درفته الخاصة التي صارت مع الوقت مرادفة لدولاب العمل الوهمي. اشترى قفلين في الواقع. ووضع القفل الآخر على درفة دولاب البيت: "بُروفة" دولاب العمل المستقبلي، واشترى حتى الأشياء التي سيضعها فيه: مجموعة صنع الشاي. ومرآة. ومشط.

و"برطمان" زجاجي يحفظ فيه أظافره المقصوصة -عادة تعلمها من زميل سابق، مقاومة ضد الانقراض، يقولون إن الأظافر تظل تنمو لبعض الوقت بعض موت صاحبها-، خلةُ أسنان، عيدان كبريت لتنظيف صمغ الأذن، ريشة طائر وجدها على الأرض يظنه طائرًا نادرًا، جرائد قديمة، صور لزملاء وأقارب خارج سياق الحياة الزوجية... بتلك الطريقة يظل البيت بالنسبة إليه امتدادًا لحياة العمل، هكذا كان... يخلع ملابسه في البيت أمام درفة الدولاب الخشبي، يتأمل الأرفف، تأخذ الترتيب نفسه الذي يرسمه في ذهنه لدولاب المصنع: الرف العلوي للأشياء الخفيفة، الأوراق: بدأها برزمة سمينة من أوراق مطالبته بدولاب على مدى عمره الوظيفي، والرف الثاني للأشياء الأكثر خصوصية: جزء من إصبع فقده في حادثة، موضوع في برطمان ملئ بالفورمالين، عقرب صحراوي مضغوط في علبة بواجهة زجاجية أسفله حشو من القطن، عقرب غيرُ ميت، تَذكارٌ ورثَه عن أبيه، يتذكر منذ سنوات طفولته مكانه

بدولاب الأطباق بجانب الأكواب الملونة التي لم تكن تُستعمل. ويتذكر حكايته يرويها أبوه للأضياف كما حكاها لهم. رحلته الاستثنائية في الصحراء الكبرى. صلاته على الرمل وتسلل العقرب والطريقة التي اصطاده بها حيًا. قال له أبيه إن العقارب لا تمت بالجوع إن لم تتمكن من لدغ نفسها، وأنها إن حُبست تموت تدريجيًا على مدى سنوات نتيجة الشلل الطويل. طوال عمره خشي أن يفتح العلبة. أول أيام موت أبيه - بعدما آل إليه العقرب- كان يستيقظ في أوقات مختلفة من الليل يتخيل أن العقرب كسر العلبة وتسلل على البلاط رغم أنه ظل طيلة طفولته ينام على بعد أشبار منه دون خوف.

اعتاد اصطحاب أشيائه معه: "ترمس" الشاي، ولفائف الأكل: هكذا يسميها، وطقم ملابس العمل، وشبشب للوضوء ملفوف في "كيس"... لا تقصر زوجته في إعداد الجراية: ما لذ وطاب، والشاي في "الترمس" يكاد يلسع شفتيه حتى لو بقي طيلة اليوم. ولكنها

تسأله ذات مرة: "ألا توجد أماكن في المصنع؟" لا يرد. تعتقد أنه لم يفهمها. تشرح: "يعني لحفظ الأشياء بدلًا من حملها على قلبك!" لا يحير جوابًا. تغضب: "طيب. أنا غلطانة".

تدور في ذهنه عشرات المواقف الشبيهة. لا يطمئن إلى إخبارها. في الاجتماعات العائلية السنوية كان يخشى من انطلاقها مخافة أن تحوله إلى مادة للتندر. لعلها طِيبة. خفة روح وخفة عقل. لعلها وحدتُهما الطويلة بدون أولاد. لا تُفوِّت حركة أصبع، ولا تتورع عن أن تفضح حركة احشائه. أثناء جلوسهما سويًا عندما يفعلها وتشم الرائحة.. تدور بعينها تأهُّبا لتسدد نظرة كالطعنة وكلمة كالطعنة: أنت؟! سؤال كاتهام بلغ درجة اليقين.

في البيت لم يكن يسمح لها أن تلقي ولو نظرة على محتويات دولابه. بؤرة القيح بينهما. إصرارها على رؤية ما في درفة الدولاب يقابل إصراره غير المبرر على سرية أشيائه المخبأة به. رغم ذمته المالية المكشوفة كالشمس

أمامها بطريقة لا تسمح له باللعب بذيله ولو أراد، تماما كإصرارها في أول سنوات زواجهما الأولى على كشف عورته أمامها بطفولية ونزق يصل إلى حد التمنع في الفراش.

مفتاح الدولاب يزامل مفتاح القفل في جيبه في سلسلة واحدة، تنتقل إلى الملابس التي يرتديها في البيت أو العمل بطبيعية، تحولت منذ وقت بعيد إلى لاإرادية؛ كالهضم والتنفس.

ما لا بد منه حدث ذات يوم؛ نسي المفتاحين في البيت، كالوميض دار "سيناريو" الانتهاك في دماغه عندما تجد زوجتُه المفتاحين، ولا بد ستجدهما، شعر باللكمة تتجاوز الجلد واللحم والعظم لتنفذ مباشرة إلى كتلة القلب، لم يكن خوفه بسبب أنها ستكتشف أشياء الدولاب فقط، بل أنها ستكتشف تفاهتها إلى جوار إصراره الطويل، تمامًا كما اكتشفت في بداية زواجهما عيوبَ جسده عندما رضخ لها وخلع ملابسه بالكامل، أيضًا مصيبة أخرى؛ الطلبات المكتوبة التي

قدَّمَها منذ بداية حياته الوظيفية حتى الآن يطالب فيها بدولاب. يتصور النظرة الطعنة عندما يدخل من الباب. أغلق عينه تألمًا.

لم يحدث شيء. الدولاب كان مغلقًا. المفتاح في مكانه. لا انتهاك. لم يسألها. لم يفاتحها حتى في الموضوع ولو من بعيد. فقط عرف أنها فتحته. ليس دليلًا مادِّيًا، وإنما شيء استقرَّ في عينها. ضحكة ساخرة في نظراتها إليه مُعلَّقة كتفاحة آدم في الحلق.

توقع أن تتحدث. ليس للتو. ربما بعد أيام. أن تثور. تضحك على خيبته الناقعة. أشيائِه السرية التافهة... بالعكس خَفَتَ إصرارُها على فتح درفة الدولاب. لم يرتَح. في الواقع.. جاء بنتيجة عكسية. انشقَّ هذا النهر بينهما. يسيران. أيدٍ متشابكةٌ. يتسع النهر. ترك يدَها في وقت ما. اعتاد عند عودته أن يأخذ الجرائد تحت إبطه. وكوبَ الشاي في يده. وعُلبتَيْ السجائر والكبريت: استعدادات الوحدة الطويلة... يدخل دورة المياه الضيقة كالرحم. يشد الترباس خلفه.

دائمًا لا ينسى القطن في أذنيه. يمتص كوب الشاي مثل يرقة حتى يلتصق التفل بالجدار الزجاجي. يقوم بالوظيفتين معًا: القراءة والتبرز. عندما تخلو بطنه لا يغادر دورة المياه، بل يستمر في القراءة. تأتيه تلك الأفكار، وعندئذ تصبح القراءة مجرد قلب للصفحات. يتحسس عَكن بطنه في انخفاضها وارتفاعها. تكسُّرَها "الأكورديوني" وقد خرجت طبقاتُ الشحم عن السيطرة منذ وقت بعيد.

زوجته الغاضبة لها خطة دفاع أيضًا. لا يبالي. حريصة على أن تجعله يفهم أنها مُتضايِقة. حريصة على أن تتضايق أيضًا. تُسخِّن نفسها لتصل إلى الذروة. يسمعها في رحمه الدافئ. تفتح الأدراج وتغلقها بعنف. تنتقل إلى الثلاجة. أبواب الغرف والنوافذ. تعلم أنه يتضايق. اعتاد تحذيرها: الغلق بهذه الطريقة للأبواب يُضعف الزجاج، ومن ثَم يسقط شظايا بدون سبب. يسمونه سرطان الزجاج، ولكنه ليس سوى طيش البشر في التعامل مع الأشياء. إنه وحده من يعلم قيمة

الأبواب في الحياة. كيف تُغلق حيزًا ويسمونه بيت أو غرفة أو دولاب. كيف يكون الشقاء إذا انغلقت الأبواب وأنت خارجها. يسمع فرقعة مِضْرَب الذباب على كراسي "الفوتيل". تيئس. ترُش المُبيد. لا تعجبها الرائحة. معطر الهواء. تدخل في حلقة مفرغة. تلتصق ذبابة بزجاج باب دورة المياه كأنها تستنجد به. تجاهد لتخترقه هربًا من الخنق. تموت... لولا التعوُّد لتآكلت العلاقة بينهما منذ زمن بعيد. شحمُ العلاقات.. التعوُّد والسرمدية.

لم يعد يهتم بأخبار الدواليب: تكيَّفَ على وضعه. تأتيهِ الأخبار مجانًا دون سؤال. تكونت مع الشكوى المشتركة رابطةٌ يسميها أصحابَ الأكياس السوداء: الجرايات. لا يراهم أثناء العمل. بل عند الدخول الصباحي. يتجمعون حوله مثل النحل حول ملكتهم عند وجود أخبار جديدة. يحترمونه لكبر سنه وأقدميته. ويستشيرونه في صيغ مختلفة من شكاوى نارية يقدمونها للإدارة. لا ينصحهم. لا أمل. فالمحاولة

جزء من الحياة ... من وقت لآخر يختفي من تجمعهم هذا واحد. وسرعان ما يعلمون أنه استلم دولابًا. "الدواليب تُغيِّر الناس". يبتسمون. يتبادلون النظرات خفية. "مَن عليه الدور؟". بالأصح: "مَن يلعب بَذيله؟"؛ فالدواليبُ لا تسقط من السماء. يعرفون ذلك أكثر من غيرهم. عندما يرى شفاههم الحُمر يخجل. يقول في نفسه إنه لا بد يبدو بينهم مثلَ طائر "أبو مركوب" بين مجموعة من البلشون.

يسمع منهم ذات يوم عن اللجنة التي شُكِّلت. لا يعول على كلامهم. ولكن تمر أيامٌ ويرسلون له. هل حان الوقت؟! لا يتلقى من اللجنة تهنئة. بل توبيخًا. ما كل هذا الصبر وهذه السنين؟! حقك الضائع. أين كنت؟! يسلمونه الدولاب. في الصباح يتحلَّقون حوله مهنئين. هم أيضًا استلموا بالأمس. هل صحيحٌ أنهم وجدوا بعض العاملين بأكثر من دولاب؟! أولاد الهِرمة! تنقرض مع الأيام الأكياس السوداء. عداه هو. ظل مُصرًا على الكيس الأسود. ينسى أسماءهم مع مرور

الوقت. يتبادلون الابتسامات الودودة من بعيد. بينهم تاريخ مشترك. أيديهم في جيوبهم دافئة. يتكاسلون عن إخراجها. يشيرون بإيماءة من الذقن للكيس في يده. يبتسم. لا يمكن أن يفهموا.

يوم إحالته إلى المعاش لم تكن هناك حاجة ليستيقظ مبكرًا. الحفلة بعد صلاة الظهر. ولكن ساعته البيولوجية أيقظته في نفس الميعاد. حيث ظل راقدًا على ظهره يراقب انفجار الضوء السام خارج شيش النافذة. رغم تباطئِه وجد نفسه في الشارع مبكرًا عن ميعاده. لن يستغرق كل هذا الوقت في المواصلات. يداه الفارغتان إلى جانبه مثل عضو مشلول. يضعهما في جيبه. ينتبه. الجو حار وكبر سنه لا يليق به. يدليهما إلى جواره. في المحطة يشتري جريدة؛ ليضعها في يديه لا ليقرأها. بعد قليل تجد الجريدة مكانها تحت إبطه. شعور قوي أن كل الناس من حوله يلاحظون حيرته بيديه. كما توقع.. يصل مبكرًا جدًّا. ساعتان على الأقل. في العادة لا يكون متعبًا بهذه الطريقة. رغم أنه

لم يعمل. والفاصل بين التعب واللا تعب يومٌ واحد. لم يفرحْ بالحفلة أكثر من فرحته أنهم أعطَوه أشياء يحملها في رحلة عودته. لاحظَ بين وجوه مودِّعيه وجهًا جديدًا بدا مُصِرًّا على مصافحته باليد. قال له وهو لا ينظر إلى وجهه:

– أنا صاحب الدولاب، أخبروني في الإدارة أن أنسق معك.

– نعم، الدولاب ليس به شئ، سلمت عهدتي.

– نعم، ولكن عليه قفل، هذا الصباح... عندما ذهبنا أنا واللجنة، يعني... وجدنا قفل، وطبعًا... لا نستطيع...

أكمل فجوات حديثة فركًا في اليد، أخبرَه لينهي توترَه:

– الدولاب فارغ، أقصد أفرغته، والقفل قديم لا أحتاجه، اكسره، لن تجد سوى العناكب.

ابتسم، وانتهى الحوار.

عندما وصل إلى البيت جاءته المكالمة. زميل قديم من المصنع، عرف أن الشاب الذي كلمه ابن أخته. يضحك. يشتم:

- لو زمارة رقبتك في يدي الآن! ابن أختي قال لي إنك أفهمته أنها عناكب وليست عقاربَ! عن أي شيء أتحدث؟! أنت مسطول! العلبة التي تركتها لنا في الدولاب، على العموم مَقْلَب مقبول، لو رأيتَ وجوهَ الرجال ونحن نتفق على فتح العلبة. وبعدها وكل واحد منا يتسلح، ويفتح العلبة أشجعنا بـ"جوانتي اللحام"، ويرمي محتوياتها على الأرض. كاد كل واحد يبطح زميله! أطمئنك أن عقربك أخذ من الضربات ما يقتل فيل. ورغم ذلك لم يتبطط حتى! لماذا؟! أقول لك أنت مسطول!

ممسكًا بسماعة الهاتف، سنواتُه السِتُّون! يفتح فمه ويغلقه مثل سمكة تمضغ الماء، غير قادر على

الكلام. لو رآه زميل العمل لتوقف عن الهتاف في سماعة الهاتف!

- أقول لك "بلاستيك": لُعبة!

فقط. لو رآه...

# الرجل الذي صعد إلى السماء

الساحة بين مخزن المهمات بالمصنع ونقطة ارتكاز سيارات الإطفاء نسميها مخزن الخردة. يوضع فيها المواسير الصدئة الهالكة. وبراميل الشحم والزيت الفارغة. والبراميل البلاستيكية الزرقاء المتبقية من العمليات الصناعية. وبقايا أخشاب، ومحابس ضخمة، وتعشش فيها الثعالب. وتُسمع صرخاتُها في وضح النهار، ويبرز من منتصفها على قاعدة خرسانية بقايا سلم يصعد على عمود شبيه بأعمدة الكهرباء مسافة متر تقريبًا.

الذاهب إلى مخزن المهمات أو عائدًا منه لا يمكن أن يفوته إلقاء نظرة -يمتد خيط لا ينقطع من عينه- على القاعدة الخرسانية وبقايا السلم، وابتسامة خافتة ترتعش على شفتيه توشك أن تولد فتصبح ابتسامة كاملة بصوت وجلجلة متذكرًا ذلك اليوم. قد يكون

رأى، أو سمع ممن رأى... ولكن أبدًا لا تفقد الحكاية قدرتها على الإدهاش. الحكاية تستطيع أن تسمعها بالتفصيل الممل من العاملين بالمخزن، فهو يتوارثونها كجزء من تاريخ المكان لا يقل أهمية عن دفاتر الجرد.

والمهم ليس الحكاية، بل المقدمات: الجزء المختفي من جبل الثلج تحت الماء، والذي لن تسمعه إلا من العاملين بالعنابر في الداخل -الذين يعرفون "س": بطل الحكاية- تلك المقدمات التي هي جزء من حياتهم وواقعهم اليومي.

و"س" في علاقاته مع زملائه أو رئيسه المباشر مثل أرض منبسطة لا ترى فيها عوجًا ولا أمْتًا، يبتسم دائما، حتى في أحلك الأعطال، يبتسم للدرجة التي تجعلك تخشى على جلد وجهه أن يتشقق من طول التمدد، هادئ، ويزداد هدوءًا كلما ازدادت عصبية مَن حوله، حتى تظنه يكاد يسقط منك نومًا إذا ازداد الضغط عليه أثناء العطل لإنجاز شيء ما.

وهو صبورٌ كالجِمال، حتى تظن أن أمه أرضعتْه صبَّارًا مُرًّا وليس لبنًا مثل سائر الأطفال، ويقتنع بما يفعله حتى لو وقف العالم كله على الجانب الآخر. لذا كان أكثرُ كلامه: "لعلمك، أحلى أيام... "، ثم يُردِف جملته الشهيرة تلك بشيء ما يقوم به الآن؛ مثل شراء السمك، وكسر الفسيخ، وتخزين السمن البلدي...)، وغالبًا ما تكون أحلى أيام قد فاتت! ولكن يكفي أن يقوم به حتى تكون أحلى أيام.

وهو يشتري السمك من البائعات أمام المصنع يوميًّا، حتى تظنه لا يأكل إلا السمك، في تلك الفترة الحرجة بين الورديَّتين حين تكون الحافلات في انتظار آخر عامل بالمصنع لتنطلق، والمشهد اليومي لا يغير من تفاصيله حرُّ الصيف أو نزولُ المطر، "س" وهو ينتقي السمك من قُفة البائعة المليئة بقطع الثلج المجروش، يفحص لونها وقشورها، ويتَّكِئ بإصبعه على بطن السمكة حتى يرى الدهن يخرج متلويًا من بطنها؛ دلالة على أن السمك معلوفٌ جيدًا، كأنه لن يأكل السمكة،

رحلته المُضنِية مرة أخرى، إضافة إلى الرحلة الأخرى إلى الإدارة -حيث تستطيع أن تراه نصف يومه تقريبًا- لإنهاء استحقاقاته بعد إمضاء الإذن، وهو في ذلك يُعرِّض نفسه أكثر لغضب رؤسائه المباشرين؛ لاختفاءاته المتكررة عن موقع العمل.

ولو اقتصر الأمر على علاقاته السيئة مع رؤسائه لكفى، ولكن الأمر الذي لا يغفره له أحد هو أن "س" متزوجٌ امرأتان، وله من كل زوجة أولاد، ولا يتحدث عن زوجتيه، وبغض النظر عن الدوافع والأسباب.. كان وقع ذكر هذا الخبر لأول مرة مُدوِيًا ومثيرًا لشهوة التعليق بالكلام على قصر قامة "س" اللافت للنظر، وعدد سنوات عمره الخمسين، مع بعض الحقد الخفي؛ حيث استطاع هذا القزم العجوز أن يفعل الشيء الذي عجزوا عنه؛ وهو السيطرة على زوجتين.

ذات يوم - كما تبدأ كل الحكايات - وبعد دخول الوردية وقف "س" أمام كشف الغياب يقرأ الأسماء، وأمام دولابه ظل لوقت طويل كأنه يفكر، يخترع

الأشياء ليضيع الوقت: بدَّلَ ملابسَه ببطء، مرَّرَ المشطَ على رأسه. قرأ في ورقة جريدة قديمة. وأخيرًا تنفس بصوت عال وأخذ ورقة إذن إجازة، وملأها واقفًا. وأغلق الدولاب.

عندما دخل على مدير الإدارة وجده وحده. بهدوء شديد أغلق الباب خلفه، ووضعَ الإذن على المكتب تحت سن القلم، وأشار إلى الإذن دون أن يتكلم: كأنه يخشى أن يتكلم فينفجر. مرَّتْ نصف ساعة أو أكثر. الحوار المتبادل بالداخل لم تتسرب منه كلمة عالية. مثل شخصين يتسامران. قيل إن المدير مزَّقَ الورقة ورماها في وجه "س"، ولكن في التحقيق قال المدير إنه كرمشها في يده -كرمشة بسيطة- ووضعها في منفضة السجائر، وطلب منه الانصراف إلى عمله. حكى "س" عن الحوار. المدير الذي كان يشعر بأريحية وانبساط ذلك اليوم بسبب مغامرة الليلة الفائتة: المغامرة التي وجدت لها فيما بعد راويًا يرويها - قال المدير للضابط أنهم يكذبون وأنه كان قلقًا بسبب كثرة الأعطال في

الأيام الأخيرة - فطلب منه أن يصف له كيف يضاجع زوجتيه. مدير الإدارة أصر أنه لا يعلم عدد زوجات "س" حتى يطلب منه هذا الطلب. وعندما سأله عن سبب غيابه ردَّ عليه "س" أنه تغيب لأن آلام الدورة الشهرية فاجأته وهو يركب الحافلة. أكَّد المدير هذا الرد: فطلبَ منه أن يخرج إلى المصنع ويُعلن بأعلى صوت -بحيث يسمعه وهو في المكتب- أنه يحيض كل شهر، وسيضع إمضاؤه على الإذن.

خرج "س" من المكتب وقد تحول لون وجهه إلى اللون القرمزي، وسقطت ابتسامته الغرائية. وظهرت السنوات الخمسون لأول مرة على تجاعيد وجهه.

طار الخبر إلى المصنع بعد دقائق فانقلب مثل خلية نحل سقطت وتبعثرت محتوياتها على الأرض، وعلى طول الطريق بين مخزن المهمات والمصنع كان العاملين -العائدين والرائحين- كصفَّيْ النمل.. يتوقفون للحظات، وكتلامس قرونُ الاستشعار يتبادلون تطورات الموقف.

السلم الحديدي والذي لا يزيد عَرضُه عن نصف متر. والذي لم يذكر أحد سبب وجوده في هذا المكان. يصعد معه إلى السماء عمود للإشارة تومَض نهايتُه بالضوء الأحمر ليلًا ونهارًا. طويلٌ حتى تظنه سيثقب السماء.

صعد "س" على السلم حتى صار بمحاذاة سقف المخزن. ومن مكانه كان يستطيع أن يتأمل الحمام الذي يعشش في التواءات السقف الصاج الشبيه بالأكورديون وهو يمارس التقبيل والقفز والدوران حول نفسه وتنقية ريشه من الحشرات بمنقاره.

ترسَّبَ العاملون حول السلم. نادَوْا عليه فلم يرد. وبينما يلوك المدير ذكريات ليلته في المكتب.. وجدَ مَن يحمل إليه الخبر.

التفاصيل. تفاصيل التفاصيل. والتي كان حجمُها يزداد مع مرور الزمن؛ مثل كرة الثلج التي تتدحرج من أعلى الجبل. بينما يختفي الهيكلُ العام للحكاية تحت الأرض؛ حضور المديرين من مكاتبهم المكيفة. ووقوفهم

بالساعات تحت الشمس يتوسلون إلى "س" أن ينزل وستنفَّذ كل طلباته. إحضار الوِنش الكبير ومدُّ "لَندَته" قريبًا من "س".. فرَدَّ بصعود درجات إضافية. نزول رئيس المصنع من برجه العاجي وهو يظن أنه سيحل الموقف بكلمة واحدة.. ورَدَّ "س" عليه: "بطَّل تاكل بط يا سعادة الريس": الجملة التي صارت فيما بعد مثلًا لفقدان الضمير وإتمام العمل على غير الوجه الأمثل والرشوة. "اللوادر" التي أتَتْ بأكوام الرمل وكوَّنتْ تلًّا أسفل السلَّم تحسُّبًا لسقوطه. الإتيان -سيارة الوردية- بزوجتَيْ "س" وأولاده للضغط عليه. ورَدَّ "س" على كل تلك المحاولات بالصعود درجات أخريات على السلم، حتى صار يكاد لا يرى. وأصبح الحوار الدائر من جهة واحدة. وبمكبر الصوت.

ومع توغُّله في التورط بالحدث. الصعود. والسلم الذي بدأ يشعر به تحت قدمه يهتز ويتمايل. الهواء الذي أصبح أكثر قوة وبرودة ينفُذُ من ملابسه إلى عظامه دون المرور باللحم. هناك.. أصبحَت السماء

قريبةً جدًّا. والمصنع الذي ظهر له الآن. صغيرًا كلعب الأطفال بحيث لا ينم عن الظلم الواقع فيه. وهبط عليه يقين أن الله وضعَه في مكانه -رتبَ هذه الأحداث- ليشكو إليه. وتدفَّقَ الدفء من قلبه إلى سائر جسده: فأغمضَ عينه وبدأ يدعو على كل ظالم بالاسم -أو بالصفة إذا لم تسعفه ذاكرته بالاسم- ووصلتْ له أصوات وبكاء من الأسفل: فتأكَّدَ أنهم يؤمِّنون على دعائه.

تحت... كتلة العاملين الذين تتطور بداخلهم الأحداثُ بشكل مذهل. مشكلة "س" صارت تُقالُ بصوت عال. الظلم وجد ألف فم يحكيه للمرة الأولى على مسمع من القيادات التي صارتْ تُشتَم بصوت عال. البكاء والاستنكار والفزع. وقيل إن الشرطة منعَتْ يومها أكثر من محاولة لصعود السلَّم تضامنًا مع "س".

لا يهم كيف نزل "س" بعدها؛ بعد أن وصل إلى هذا الارتفاع وبعد أن خارت قدماه بمرور الوقت: ثلاث ساعات! ظهر الخبر في جريدة واحدة. أسطر معدودة.

ووجدَ عشرات الأيدي التي انتزعَتْه ووضعَتْه أسفل زجاج المكاتب جنبًا إلى جنب مع الصورة الضوئية لإمضاء السيد الرئيس عند زيارته الشهيرة للمصنع أسفل تمنياته بالتوفيق والتقدم.

و"س" يعيش الآن بيننا. يجري على الأعطال كما نجري، أخَذَ ترقياته المتأخرة ولم يتم معاقبة أحد. أما السلم فاجتُثَّ من مكانه بعد أن هدأت الأمور.

وفي اجتماع النقابة العام -مع نقابيِّي المصانع الأخرى- سُرِدتْ الأحداث بالتفصيل، مع الضحكات والدهشة. قال أحد الجالسين إنه لا بد من أن يُبنى سلَّم في كل مصنع. قال رئيس النقابة بصوت هامس كأنه يحلم:

– بل في كل شارع.

# شيخ البحر

طيلة حياتنا المشتركة ظللت آكل من تراب قدميه، كنا أول مولودَين لأبي، اكتسبَ بالدقائق القليلة التي سبقني بها إلى الدنيا لقبَ الأخ الكبير، وظل ملتصقًا به. يقول أبي إن أسماءنا تبدَّلتْ في صغرنا لتشابهنا وصعوبة تمييزنا. فكان هذا أولَ استيلاء منه على حق من حقوقي. اسمه -اسمي- الذي يبدأ بحرف الألف حاصدًا كل مميزات أول الكشف. أما اسمي -اسمه في حقيقة الأمر- بترتيبه الأبجدي.. فكل ما أخذته منه أني تعلمت الانتظار والتسليم لحقيقة دفني في ذيل القائمة.

كنت لا ألبس إلا ما يضيق عليه من ملابسه القديمة. فرغم توأمتنا بدا كأن جسده يستجيب للقب الأخ الكبير، وبالتالي كنت لا ألبس إلا ما ينتقيه. وفي سنواتنا الأولى ونحن نلعب دفعني من فوق السطح

فانكسرتُ ساقي، وتأخرتُ عنه سنة دراسية، فصار واقعًا حكوميًّا أيضًا، كونه أخي الكبير، وصار إرث كتبه القديمة أيضًا... تترسب عليَّ مليئةً بأثر التهويم عند مراودة النوم والشخبطة والحلول الجاهزة، وفي المدرسة كان أساتذتُه السابقون لا يتوقفون عن مقارنتي به، كل الرائع والجيد فيَّ منسوبٌ تلقائيًّا لأخي، أما السيِّء.. فأتلقى التوبيخ عليه لأن أخي أفضل مني فيه.

حقيقة وجودنا في بيت ليس لأبنائه مستقبل إلا الوظيفة فُرضتْ علينا واقعًا حياتيًّا صارمًا، عشنا سنواتنا الأولى -أنا وهو- تحت العينين المسلطتين باستمرار لأب يغلق باب البيت من بعد صلاة العشاء، ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج، موظف المجلس المحلي الذي عاش كما لا ينبغي للموظف في بلدنا إلا أن يعيش، في المرات التي كانتْ أمي ترسلني إليه في غرفة مكتبه بعمله ذات الرطوبة الثلجية وندف الملح التي تنبت على الطلاء الجيري، والتي تشبه في شكلها أعشاش عناكب أبو شبت، كنت أتأمل الرحم القاسي

الذي تكون فيه كبرياء أبي العجيب، والسوطَ الذي ظل يجلدنا به طيلة حياته، ويجلد نفسه قبلنا، كراهيته لاستخفاف الناس به وبفقره، أزرار قميصه المغلقة بالكامل حتى في أشد أيام الصيف؛ لكي لا تظهر ملابسه الداخلية المهترئة من كثرة الغسيل، حسابه لعدد الركعات التي يصليها جاره المتأخر في الصلاة؛ ليخبرنا باسمه على العشاء بنوع من التشفي، وحتى اهتمامه بدراستنا، نسمع صوت أقدامه على السلم فنترك ما بأيدينا ونهرع إلى الكتب لنفتحها تجنبًا لسماع الموشح الطويل عن الدنيا، والتعب أيامًا قليلة لراحة العمر كله، وهلم جرًّا... لم يَخْفَ هذا التصرف على أمي التي كانت بمثابة "الكاميرا" المسجلة لأبي في غيابه، فبدأ يصعد السلم دون صوت وواضعًا المفتاح في شرشرة الكالون أو دافعًا الباب المفتوح -غالبًا- بيده دون صوت، لنتفاجأ به كالشبح بيننا متلبسين بما نفعله، والذي يكون غالبًا أي شيء غير الوظيفة الوحيدة المقنعة لأبي: المذاكرة.

أيام الدراسة تمر شبيهة بالأيام التي يموت فيها أحد الجيران. نفس الجو المأتميّ الكئيب: إغلاق التلفاز أغلب ساعات النهار والليل. لا يُسمح لنا إلا ببضع نظرات نختلسها أثناء مرورنا بالصالة. وأنصاف كلمات نسمعها أثناء ارتباطنا السُري بالكتاب. ومن وقت لآخر يمر علينا ويربت على ظهورنا مشجعًا. وعندما يعود إلى مجلسه يقوم بخفض الصوت درجة أخرى.

أما أيام الامتحانات فتُعلَن حالةُ التأهب القصوى. حتى لو لم تكن السنة نهائية: يختفي التلفاز تحت الأرض. ويصبح الكلام والنوم والحركة -حتى الذهاب لقضاء الحاجة- بحساب. يستيقظ أبي في أوقات متقطعة من الليل. يمر في الصالة مرورًا ضبابيًّا. يصنع لنفسه كوبًا من الشاي المكتوم كما كنا نسميه: فقد روعيَ فيه عدم إصدار أي صوت. ويأتي من خلفنا ليتأملنا: نبتَتَيْه الصغيرتين.

ورغم ذلك... ظل أخي الكبير يهرب من شباك دورة المياه للاستحمام عند السواقي واصطياد السمك

و"السرمحة" في الشوارع التي لا يطرقها أبي، وحتى في ساعات مذاكرته الليلية.. يضع قصص الجيب في الكتاب المفتوح وفي "أستك" سرواله عند ذهابه لدورة المياه، حيث يقضي الساعات الطوال يقرأها، حتى اضطر أبي إلى أن يسقيه -ويسقيني معه احتياطًا- شربةَ ديدان؛ فوَشِيتُ به مضطرًا بعد جرعتين، فجمع -أبي- القصصَ من مخابئها -تحت مراتب السرير وبين الكتب- وأحرقها كومة واحدة فوق السطح.

تجاوز أخي سنوات دراسته الأولى وحتى السنة الثانية بالثانوية بتفوق ملحوظ أدهش مدرسيه، وأدهشه نفسه! وهو الذي يروي دائمًا قصصه الشهيرة عن فشله عندما نسخ ورقة الأسئلة في ورقة الإجابة ثلاث نسخ دون إجابة واحدة في امتحان الرياضيات بالسنة النهائية بالإعدادية، أما أنا.. فظللتُ معلَّقًا إليه بخيط خفي، مثل ذرات التراب التي تخلفها حافلة مسرعة، منتقلًا من سنة إلى سنة، باذلًا كل جهدي في مجرد إثبات انتسابي إليه، أخي المشع والمتضخم.

وحتى إمضاء أبي الشهري على الشهادة المدرسية اختلف بالنسبة إليَّ عن أخي، خالٍ من الانحناءات الناعمة الحالمة مسجِّلًا شرشرة كنبض ميكانيكيٍّ صِرف! كنت أتركها له على مِخدته، فأجدها في اليوم التالي بالمكان نفسه، ربما حتى دون أن ينظر إلى الدرجات، أما درجات أخي.. فكانت رمانة الميزان لحزن أبي وفرحه.

الجو العام لطعام العشاء -والذي يعد بمثابة الاجتماع اليومي لنا- تغيَّرَ في السنة الثالثة الثانوية، الكلام المعتاد عن أحوال الجيران وفضائحهم والأسعار التي أصيبت بالجنون.. تبدَّلَ إلى موضوع واحد كان يتم مناقشتُه بدأب واستمرار ودون ملل من كافة الجوانب: مستقبَلِ أخي كطبيب، و الذي أصبح وشيكًا لا يفصلنا عنه إلا الوقت.

"أيُّ الجامعات أفضل؟"، "ما الفرع الذي سيتخصص فيه أخي بعد الامتياز؟"،... أسئلة كثيرة ظلت موضوع نقاشنا اليومي لسنة كاملة، مع الوقت

تعودنا أن نناديه باللقب الذي لا يفتأ أبي يناديه به: دكتور. وشهد أخي من عطفه ما لم يشهده في عمره كله، حتى مَناب أبي من اللحم، صار يضعه أمامه على الأكل آمرًا له: "كُل: تحتاجُها أكثر مني". وذات يوم سافر خصيصًا إلى طنطا واشترى كميات كبيرة من الحمص، عندما سمع أنه ينمِّي الذكاء ويقوِّي التركيز.

تفاصيل كثيرة ضاعت مني لهذه الأيام المجنونة، خاصة إذا تذكرت أول الأحداث الكبيرة، إحراق أخي لملابسه ليلة الامتحان النهائي رافضًا الذهاب. الشيء الذي أذكره في تلك الليلة استيقاظ أبي الذي لم ينم أصلًا، كوب الشاي المكتوم ووقفته الطويلة متواريًا في الظلام يفترس ظهر أخي بنظراته، أخبرني أخي فيما بعد أنه شعر به، طوال الليل وهو يشعر به، أعصابه المحترقة مشدودة بخيوط خفيَّة إلى "مُلة" سريره ولو خفتتْ أنَّاته، تمنى وقتها أن يجيء إليه ويربتَ على ظهره ويأمرَه بالنوم حتى لو لم يكن قد أنهى مذاكرته، الله وحده يعلم كم عانى في تلك الليلة، وهو الذي لم يَخَف

من امتحان في حياته قط. صحَونا في الفجر على رائحة القماش المحترق والدخان. التوسلات والدموع خلف الباب المغلق. وأمي التي ذهبت تستلف ملابسَ له من الجيران. وأخيرًا ذهب مجبرًا. وفي اللجنة لبث ساعة كاملة دون أن يخط كلمة واحدة. ثم طلب ورقة أسئلة أخرى. المراقب لاحظ توتره فأحضر له كوبًا من الشاي وحبة أسبرين ووضعها أمامه. وكان هذا بمثابة القشة الأخيرة. كسر قلمه وحاول أن يغادر اللجنة. ولكن المراقبين الذين أوصاهم أبي منعوه بالقوة وأحضروا له قلمًا آخر. وفي المساء أخبرني أخي أنه لم يكتب كلمة واحدة. كعادتي لم أصدق... كمعظم حكاياته عن فشله. وكنت أراه في الأيام التالية يفتح الكتب طوال الليل ولا يقلب أوراقها. فلا يساورني أدنى شك أنه يفتح على الصفحة التي سيجيء منها الامتحان. وتلك الثقة العمياء انعكست حتى على تصرفات الناس في بلدنا الصغير! فلم يبق بيت يوم ظهور النتيجة إلا واشترى الجرائد واثقين من رؤية اسم أخي في العشرة

الأوائل، ذلك اليوم عندما اختبأ عند عمي -وطيلة الأيام التالية- حيث لم يكن في مجالس الناس حديثٌ إلا عن رسوب أخي المدوي.

جاء عمي -كهربائي البيوت- ليأخذ على أبي تعهدًا ألا يضرب أخي.

ثم قال ممازحًا

- وبلاش يطلع دكتور... يطلع حاجة تانية... يطلع السلم مثلًا.

انتصبت كبرياء أبي للكلمات الموجِعة التي قالها عمي دون قصد، فردَّ اللكمةَ مضاعفة:

- أو يطلع كهربائي.

ابتلع عمي الإهانة وانصرف بسرعة دون أن يشرب الشاي، متعلِّلًا بذبابة سقطت فيه، الذبابة التي ظلت في أكواب الشاي التي نصنعها لعمي عند زياراته لنا حتى موته.

عند عودة أخي للبيت تعامل معه أبي كأنه مصنوع من الزجاج الهش، أو مليء بمادة سامة، الأمر الذي اتَّضح فيما بعد في رحلات السفر الغامضة، والتي يعود منها أخي مهدودًا من التعب، البخور، والأشربة الغامضة، والاستحمام فجرًا بماء مُعد مسبقًا، والأوراق المنقوشة بالطلاسم التي تُدس تحت مِخدته... وبدا على أخي أنه انغلق للأبد على شيء لم أستطع أن أكتشفه حتى يوم ترك البيت للمرة الأخيرة، ولكني أستطيع أن أحكي عن آثاره.

كان يصعد إلى السطح متأبطًا كتبه ويقضي هناك معظم أوقات النهار مستغرقًا في تأملاته الفيسفائية، والتي تظهر آثارُها عليه ليلًا عندما يتكلم تحت غطائه، فأظنه مستيقظًا ولكن سكوته المؤقت عند تقلبه يجعل شعرَ رأسي يقف، ورغم اختلاف التفاصيل.. كان واضحًا أن أخي سيعيد الحكاية القديمة، وقبل الامتحان بأيام ترك أخي البيت.

فتَّش أبي الغرف، وبحثْنا عنه فوق السطح. وسألنا الجيران، وذهبت أمي لبيوت أقربائنا، بينما استسلم أبي لشرودٍ ذهنيٍّ جعله يكرر البحث حتى وقت متأخر دون فائدة، أتوقع، دون حتى أن ينظر، وإلا ما فائدة البحث عنه تحت الأَسِرَّة وفي أدراج "الكومودو"؟! وبدا كلُعبة أصابها عطب، حتى استقر في النهاية جالسًا على سرير أخي كأنه انقطم فيها ترسٌ.

في الأيام التالية تغيب أبي عن عمله، وظلت غرفة الاستقبال ممتلئة بالناس الصامتين حتى وقت متأخر، كأن أخي قد مات.

ذلك اليوم لم ينبس أبي ببنت شفة، وفي اليوم التالي قل عدد الناس، ولكن أبي بدأ يتكلم، حكي لهم عن زياراته الليلية للسطح، وتأمله للسماء حتى اكتشفه، صغيرٌ يغمز بالضوء من وقت لآخر، ثابتٌ تقريبًا فوق البيت، القمر الذي أرسله الروس ليسلط الإشعاعات على مخ أخي ليمنعوه من التفوق وتعطيل البلد عن التقدم، تفاوتت ردود أفعال الجالسين: ما

بين كاتم لضحكاته، ومغرغر العينين بالدموع. قام عمي وصرف الناس متعللًا بتعب أخيه، قضَيا معظم ساعات الليل في الشُرفة، وحدهما، كشجرتين من شعر البنات مدلَّيتين بشط تُرعة، بكوبَي الشاي الباردَين... أتذكر وقفتَه في بئر السلم وقد أخذني تحت إبطه وصوت كلاب الشارع، لا أنسى كلماته، الكلمات المستوحاة من طبيعة عمله، والتي لم يجد غيرها ليوضح مدى التلف الذي أصاب أبي:

- الواضح إن أبوك أخد أرضي، ربنا معاك.

بالنسبة لأبي.. كان ذلك الحدث هو ما نخر تحت عصاه، عصاه التي ظل طيلة سنوات مستندًا عليها، متعاملًا مع أخي كاستثمار جيد، فقدَ اهتمامَه القديم بدراستنا، خفَّتْ قبضتُه علينا، ولكني استمررتُ بقوة القصور الذاتي لعينيه المسلطتين وصوت نحنحته على السلم، و ببطءٍ بدأ يتحول إلى هذا الشخص الذي عشنا معه وأمي إلى آخر حياته: القلق المعجون بالبخل، والخوف من الفضيحة، وتغيرات الزمن، والمسئولية

الفردية... حتى النفس الأخير ظل قلِقًا على البيت وفواتير الكهرباء والماء؛ يستيقظ ليلًا لإغلاق صنبور، ويمشي خلفنا في الغرف لإغلاق اللمبات التي ننساها، ويصعد إلى السطح إثر كل مطر ليطارد تكوينات الماء بمساحة؛ حتى لا تنشع من السقف وتفسد الأساسات، و يذكر عند كل حدث لنسيان لمبة مضاءة أو صنبور مفتوح لأحدنا.. أرقامَ التكلفة التي كلفها عند بناء البيت ومد مواسير الصرف وأسلاك الكهرباء... عشرات الصفقات الغامضة، والتي يذكر أسماء رجالاتها وسيرهم الحياتية بموسوعية غريبة، الأرقام التي دفعها في شهور الشتاء لفواتير الكهرباء إذا كنا في الصيف، والعكس... وكنا نظل واقفين نستمع له خشية إثارة غضبه، العقاب الذي يكون بمثابة دواء قوي للنسيان للمرة التالية التي تشعل فيها لمبة غرفة أو تفتح حنفية.

الحدث الذي لم يكن له تأثيره المتوقع في حياتنا.. ظهورُ أخي بعد شهور، أبي العائد من الخارج لتوه وجد نفسَه منغرسًا في المراسم الأولى لاستقباله في الصالة

وقد أحطنا به. بدا عليه كأنه لم يلحظ وجوده. طلب الطعام ودخل ليبدل ملابسه.

الجو العام للعشاء تسمَّمَ إلى الأبد. تضخمت خلفية الأصوات: المضغ. اصطدام الملاعق بالطبق المشترك... صار الصمت مادة يومية نبتلعها كما يبتلع الطحان ذرو الدقيق، مجبرين، وتعود أخي على الغياب والمبيت خارج البيت مرات ومرات. وكأنه يستعد لقفزته الكبرى... أذكر ذلك اليوم وكأنه الآن. لمحتُ في عينيه النظرة نفسها التي تبدو فيهما عندما يهم بفعل شيء. نظرته القديمة نفسها عندما قلدنا الهنود الحمر، وأشعل النار في مرتبة القطن بقطعتين من الحجر، النظرة نفسها عندما سرقْنا الفلوس من قميص أبي وخبأْها خلف "كُبس" الكهرباء؛ فأحرقَ ماس كهربائي نصفَها. متجهًا ناحية الباب قالت له أمي: "لا تتأخر". قال: "مسافة السكة". وعندما ملأ هيكلُه فراغَ الباب استدار وملأ عينيه من وجوهنا، وللحظات بدا عليه أنه سيتكلم. محتشدَ الوجه بالتردد... حسم أمره وانصرف.

ولم أكن أعلم أنها المرة الأخيرة التي سأراه فيها: أخي الأكبر مني -لقبًا- الذي خرج ذات ظهيرة ولم يعُد.

في ذلك الوقت الذي توقفنا عن الشك في أنه غاب غيابًا شبيهًا بالذي قبله. كنتُ أقرأ وجه أبي بفزع، حيرته وألمه؟ ربما ارتياحه! وكان كبيرًا على أن ننادي به في مكبرات صوت المساجد، فأخبرنا الناس أنه سافر.

لكنه لم يختفِ من حياتنا، ظلَّ موجودًا، لم يسمح لي أبي يومًا أن أريه غضب الأبناء أو تمردهم، عشت معه مربوطًا بجملته الشهيرة كلما تأزمت بيننا الأمور: "اذهب، غر كما غار أخوك"، ولم أغُر، ظللْتُ أحمله كالحدبة على ظهري، كالكتبة الحافظين، مؤمِّلًا أن أعوِّضَه عما فاته، بطلٌ بلا مشجعين.

وفيما بعد وأنا أنظر من فوق سنوات كثيرة متصلة، بعد أن كوَّنتُ حياتي الخاصة، أجد أنني لم أعش الحياة التي أريدها، أو بالأصح.. لم تكن لي فكرة عن حياة خاصة بي، لأعيشها بعيدًا عن تلك الحدبة التي ظللت أحملها، شيخ البحر الذي صعد فوق ظهري

في تلك الأيام البعيدة وظل يرفسني ويصفعني طيلة حياتي كلها. مستعيرًا فشل أخي لأقوِّمه وأصنع نجاحي الزائف. لُعبة أبي التي ربما تفرِحه.

ربما مات أخي. أو اصطنع حياته الخاصة بعيدًا عنا. لاعنًا الأيام التي عاشها معنا. أو هلَكَ. انقرض تاركًا أحفورته تروي عنه تاريخه الخفي، وتتلقى عنه الصفعات؛ أنا. أحلم به. يمارس حيواتٍ أخرى كنت أتمنى لو عشتها. أخاف لو عشتها. أتخيل أيضًا أني سألتقي به يومًا بطريقة لا تخطر لي على بال.

في مساء اليوم الذي أتى فيه رجال الأمن واصطحبوني معهم، أخبرَني، بعد أن سألني مرة بعد مرة رجلُ الأمن الذي يرتدي ملابسَ مدنية. من خلف مكتبه. موسِّعًا من استخدام طاقة التهديد في صوته في كل مرة: "أين أخيك؟ ما آخر مرة اتصل بكم؟". ناظرًا إلى يده المتأهبة بالقلم وكأنه سيسمع ما سيكتبه. ولم تكن المرة الأخيرة التي يأخذوني فيها ليسألوني نفس السؤال.

أتذكّر كلمات أمي. ما من مرة عدت من عندهم إلا وتربت أمي على ظهري وهي تضع لي الطعام قائلة:

- كنتَ سرَّ أخيك؛ طوال عمرك يفعل ما يفعله وحده، ويضربك أبوك معه ثمن معرفتك.

# صاحب طريق

قال في نفسه: "لو عرَفوا من أنا على الحقيقة.. لتوقفوا ورمُوني كخرقة القماش المتسخة على جانب الطريق".

كان نائمًا على كرسي الحافلة عندما أيقظوه ليأخذوا منه بطاقته الشخصية، ومن ثم شحنوه في تلك السيارة. الشيء الذي ضايقه أنه ترك استواء الطريق يخدعه وينام، الذي ضايقه أكثر أن صندوق السيارة الذي وضعوه فيه خالي الجوانب من الفتحات. يذكر أنه طوال خمس السنوات التي سافر فيها على الطريق منشغلًا بإنجاز أعمال الشركة الصغيرة المُسندة إليه والتي يعمل بها في أماكن مختلفة.. لم يحدث قط أن جلس بعيدًا عن الشُبَّاك مهما كانت درجة تعجله؛ متعللًا أحيانًا بضيق التنفس، كاذبًا، وهو الرجل الذي

يقترب عدد سنوات عمره من الأربعين. قضى منها خمس السنوات الأخيرة بدون زوجة وأولاد. ينام بعمق ويصحو شبعانَ من النوم. لا يحمل همًّا سوى هم عمله -إن كان له هم: فالذي لا ينتهي اليوم.. ينتهي غدًا.

لعل السر في ذلك الشغف هو حبه لمراقبة الناس وهم يمارسون الحياة التي رفض أن يبني مثلها لنفسه مرة أخرى. أجزاء من "السيناريوهات" الصامتة الغامضة التي يضع لها من خياله. فتصبح حكايات كاملة ناطقة. يراها من خلال النوافذ المفتوحة في البيوت على حافتَيْ الطريق، والبَلْكونات، والغيطان، والشوارع، وحتى السيارات التي تمر.

طَوال هذه السنوات لم يتوقف عن السفر. فلو حدث أن نام بسبب التعب واستيقظ -دون أن يفتح عينه- يستطيع أن يعرف أي جزء من الطريق وصلوا إليه. صار عنده لكل طريق سافر فيه شريط مسجل: استواء الطريق والذي يترجم إلى خط أفقي طويل

كخط الموت في رسم القلب، الشرشرة العنيفة لخض المطبات، المعطيات التي يتم ترجمتها بسهولة... السيارة التي تنهب الطريق، دفعات الهواء الذي ميعته الحرارة، الأشجار التي تصنع صدى صوت محدود بداخل السيارة عند مرورها، رائحة الحصاد واحتراق القش أو الزيت والأشياء المقلية، برودة الشوارع، الأصوات المحيطة، رائحة الماء والعشب فوق "الكباري"، غبار الطرق الترابية، مداخل المدن والطريقة التي تبطُؤ بها السيارة عند نقاط التفتيش، وإغلاق السائق للمذياع.

ولكنه لم يكن متعبًا عندما نام، لا بد أن أحداث الليلة السابقة قد أثارته حتى لم يعد يشعر بالتعب، زيارته الخاطفة للبلد، ثم توافدهم عليه بعد العشاء، كيف عرفوا أنه موجود رغم أنه لم يُصلِّ في المسجد؟! جلسوا في صمت كأنه امتداد للعزاء القديم، ولكن عيونهم كانت تفور بالكلام، لقد طالت الراحة التي طلبها وتحولت إلى هروب واضح.

عاد يفكر في وضعه الجديد؛ في الجزء الأخير من حياته سافر كثيرًا ولم يسبق لهم أن أخذوه حتى اعتقد يقينًا أنهم فهموا رسالته. حاجته إلى الراحة الأبدية. "سوء تفاهم وسرعان ما يخلون سبيلي" هكذا قال لنفسه. وحاول أن يستثمر ذلك الوقت في إيقاظ ذاكرة لسانه بدعاء قديم كان يقوله في تلك المواقف دون جدوى. وضعوه بعد سفر محدود في غرفة مغلقة بدون نوافذ. وعارية من الأثاث إلا من بضع كراسي خشبية. لمبات النيون فوقه كانت مضاءة. اندهش عندما نظر في الحوائط الأربعة فلم يجد كُبس كهرباء واحد: فاعتقد يقينًا أنها تظل مضاءة طوال الوقت. المكان الذي لا تطفأ فيه اللمبات. أو ربما تُضاء من الخارج. أخذوا منه هاتفه المحمول؛ فسقطت من ذهنه تلقائيًا -دون حزن- كلُّ الخطط التي رتبها للاتصال بالخارج.

ساعات طويلة مرت... ولم يعرف أن الليل جاء إلا عندما أضاؤوا النور في الخارج. رأى من تحت الباب الأقدامَ وهي تتوقف خارج الغرفة أكثر من مرة.

ويتحرك مِقبضُ الباب ولا يدخل أحد. لعبتهم النفسية القديمة هي هي! لا يغيرها زمان ولا مكان. لم تثِر أعصابَه. ولكنها جعلتْه يسأل نفسه: هل يستحق كل هذا العناء وهو الميت منذ وقت بعيد؟!

عندما أخذوه في تلك الغرفة الأخرى أعتقد يقينًا أن الموضوع أكبر مما يظن. لا بد أنهم شموا رائحة ما. فَهُم لا يحركهم إلا الشم. سألوه الأسئلة الاعتيادية حتى ظن أن أسئلتهم تدور دون هدف. دردشة ليس إلا... وفي كل مرة يعيدونه إلى الغرفة كان يفكر في مغزى الأسئلة. ويزداد يقينُه أنهم يضيعون الوقت في انتظار تأكيد للشيء الذي شموا رائحته.

إلى أين تذهب؟ مدة عملك بالشركة؟ طبيعة الأعمال التي تنجزها؟ أين تسكن كل مرة في كل بلد تسافر إليه؟ هل تسمع المذياع والتلفاز؟ المطربون الذين تحبهم؟ الكتب التي تقرؤها؟ لماذا لم تتزوج حتى الآن بعد موت زوجتك وأولادك؟ ما سبب الحادثة؟ هل

تصلي دون انقطاع طويل؟ أسماء المساجد التي تصلي فيها؟

لخمس سنوات -يذكر- لم يفتح كتابًا ليقرأه. لم يصلِّ إلا بأعضاء مكسَّرة من طول السفر قبل نومه. لم ينم قط لشهر متواصل في مكان واحد. حتى توقف عن التساؤل عن مكان نومه إذا استيقظ ليلًا بسبب الحر أو كثرة النوم. أقلع عن عاداته القديمة إمعانًا في إثبات حسن نيته. وحتى الذين يعرفهم من إخوة الطريق.. صارت معرفته لأخبارهم مثل تلك المشاهد التي يراها على الطريق. تمر خاطفة مختصرة. وفي زياراته الخاطفة للبلد توقف عن السؤال عن الذين يفتقدهم: خشية أن يقولوا له: "مات". يتغلب على بالُوعة الأيدي الممدودة للأولاد الصغار بالجنيهات. ولا يسأل عن أسمائهم: خشية أن يكونوا أولاد أقاربه من الدرجة الأولى. ويجيب على سؤال أمه المعتاد: "متى تتزوج؟" بإجابة مختلفة كل مرة. ثم يفر عند الفجر إلى مكانه الجديد.

الشيء الذي أدهشهم وهم يستجوبونه -المرة تلو الأخرى- هو الشيء نفسه الذي دفعه أكثر وأكثر في تلك المتاهة.. هو أن حياته كما حكاها لهم ينقصها العنصر الذي يبحثون عنه: ملح الطعام، العنصر الذي عاش بدونه طيلة السنوات الخمس السابقة، فظهر كأنه متورط، وغير قادر على الكذب في نفس الوقت: فاخترع شيئًا على عجالة، سألهم ذات مرة: "هل ينبغي أن يعيش مثلما يتصورون حتى يستطيعوا تصنيفه؟!"، ووضعه في ملف على الأرفف.

ولكنه بالفعل موجود عندهم على الأرفف، أخبروه... الملف القديم ذاته، والذي لم يُضف إليه ورقة واحدة، حتى ظنوا أنه مات دون أن ينتبهوا، والعاصمة أرسلت تستفسر... كل ذلك المجهود الذي بذله لتنقية ملفه، والدمار النفسي الذي حصل عليه ولم يسفر إلا عن حيرتهم وقلقهم.

- قبل هذه السنوات كنتَ تسير في هذه الطريق، ثم فجأة ارتديتَ طاقية الإخفاء، أين كنت؟

- أؤمن مستقبلي.
- خش في عبي! (قال ضابط أمن الدولة وهو يهمُّ بفتح طوق قميصه).

عندما كان الحوار بينهم يصل إلى هذه الدرجة من الحدة.. تشتبك في داخله عوامل الرفض. فينسحب داخلَ صدفته ويبرشمُ فمَه؛ فيعيدونه إلى الغرفة حيث يظل لساعات في طاحونة أفكاره. أحزنه أن حياته عندهم وصلت لهذه الدرجة؛ كشيء سقط منهم بين الدولاب والحائط. فظل لسنوات دون أن يشعروا به. حتى حركوا الدولاب ذات يوم فسقط على الأرض. فتذكروه وتعجبوا من وجوده في هذا المكان. كان يمكنه أن ينهيَ المسألة بمكالمة واحدة إلى صديقه القديم فيجد نفسه في الخارج. إنه عدوهم ولكنهم يعرفونه ويحترمونه. على الأقل لم يرمِ سيفه مثله.

ولكن إلى أين؟ إلى حياته الزائفة التي اكتشف أنها لم تعُد تُجدي نفعًا. خاصةً وأن حواسهم قد

استيقظت تجاهه، وأن الطريق قد عادت تمتلئ من جديد بالحفر والمطبات؟! أم إلى حياته القديمة وقد صار غريبًا عنها؟! وحتى لو عاد وقد انفصل عنهم تلك المدة الطويلة، كالغائب يدخل بيته القديم الذي تبدَّلَ مكانُ غرفاته بعد سفر طويل، الأشخاص الذين تحركوا لأعلى بعد أن كانوا تلاميذَه ورفاقَه، الذين ينطق أسماء من علِقَت أسماؤهم بذاكرته الآن، هامسًا؛ كأنه يخشى أن يسمعها كتبتُه الحافظون.

عندما وصل إلى قرار زايلَه الإحساسُ باللهفة والخوف، وانسحبَت مشاعرُه تمامًا للداخل: مثل فراشات الضوء وهي تطير، تروح وتجيء دون أن تنطلق بعيدًا، ثم تنتحر محترقة في النار! توقف عن إعطاء المال للحارس لإحضار الطعام، وطَّن نفسَه أنها حياته الجديدة الثالثة، لن يسأل عنه أحد في الخارج وقد اعتادوا غيابه الطويل، أعجبتْه خلوتُه المحدودة، وفي الأوقات التي تسكن فيها أصواتُهم كان ينصت لأصوات

السيارات التي تمر مسرعة في الطريق البعيدة؛ فيعاوده الشوقُ إلى السفر.

# نقطة الماء

اكتشفَها ذات صباح بعد حَيْرة طويلة. نقطة الماء المليمترية المعلقة في السقف فوق مكتبه. جاء هذا الاكتشاف عبر تسلسل استنتاجي بطيء: أولًا كانت هناك تلك الشواهد: لُطَع تُرابية زيَّنت أوراق العمل. أضأل من أن تُلاحظ ولكنها كانت كالشمس بالنسبة له. غريزته الميكروسكوبية التي نمَّاها عبر سنوات طِوال من حياته الوظيفية. استغرقها في تفحص الأوراق بانتباه زائد عن الحد. قراءة ما خلف الأسطر لاستنطاق مدلولات أكثر مما يتحمله النص. إفراغ كوب من النمل بدقة على طرف المنضدة (اشتهر بين موظفيه بأنه يقرأ حافة الورقة). الإشاعة عن سابقة عمله رئيسًا لسجل مدني لم ينفِها ولم يثبتها. ولعل ما وفر الجو الخصب لنموها طريقته المضمونة في لوي أعناق النصوص.

لتطبيق مبدأه الخالد، الذي صار شعارًا لموظفي المؤسسة: إغراق القشة وتعويم الحديد. وفر للمؤسسة والحكومة ملايين الجنيهات. صحيحٌ كان هناك ضحايا. هو أول الضحايا. اعتداء الغوغائيين عليه بالسب والوشاية. ليوضع بهذا المكان في العمر الذي توقع أن يصنعوا له تمثالًا.

ثم -ذات مرة أثناء جلوسه مستغرقًا في مكافحة غازات بطنه- جاءته تلك القذيفة. تمامًا خلف ظهره بحيث تجاوزت ياقة القميص دون أن تصطدم بها: فتتفتَّتْ وتفقد قوتها. متجاوزةً السنتيمترات الباقية بنجاح كامل لتستقر هناك عند الفقرات القطنية مسببة نشعًا من البرودة والقشعريرة. فجعلتْه يرتعش مثل طفل يتبول. عندئذ رفع رأسه فلمحها. نقطة ماء مُنمنمَة وماكرة ومعلقة في السقف. لا عجب أنه لم يكتشفها لأول وهلة.

بمجرد أن يظهر الفرَّاش سيطلب منه زحزحة مكتبه سنتيمترات قليلة بعيدًا عن مدى إصابتها. ما

الضرر في نقطة ماء من شدة ضآلتها تجف قبل أن تلحق بها زميلتها؟! لو كان في أيام مجده الأولى لأقام لها جنازة لا تنفض. وربما غير لها شبكة المياه أو السقف بأكمله. ولكن مَن يستمع له الآن؟! إنه حتى يفكر في كذبة مناسبة للفرّاش: فربما نشَر الخبر بين المكاتب مع أكواب الشاي، وسيقولون إنه يريد غرفة مكتب جديدة، كما قالوا من قبل عن عبد الصمد (رئيس الأفراد) عندما أبلغ عن الأصوات الضئيلة التي سمعها في خشب مكتبه على أنها نمل أبيض. الرطوبة والنمل الأبيض كانا بمثابة صديقاه اللدودان في حياة وظيفية طويلة. أول ما استعملهما كان في سنة أولى وظيفة. ثم اعتاد قلمه عليهما لفترة طويلة في محاضر التسوية المالية لتجديد المكاتب: (الحوائط تآكلت بالرطوبة. تآكل الخشب بالنمل الأبيض) ولكن لِمَن؟ ليس لعبد الصمد المشاغب. هكذا جاءته الإشارة من فوق، ليس ورقًا رسميًا، بل مثل نقطة الماء تلك التي يظهر أثرها دون مصدرها. خمس سنوات يتذكر. الإشارة تأتي، لا

تجديد لعبد الصمد، وعبد الصمد يقتحم مكتبه يوميًا على الله، "تعالَ اسمع"، ويذهب معه، يضع أذنه، ويتخيل مستمتعًا بالقوة التي يملكها الحشراتِ التي لا يراها، ثم يرفع رأسه:

- أنت تتوهم يا أستاذ عبد الصمد.

يغضب:

- أنت من دور أبنائي، عيب عليك.

يأتي بالزملاء: "اسمعوا"، ويجمع مَن على الأرض ليُريهم، الذرور الأبيض الذي بدأ يتساقط من ثقوب منمنمة في قوائم المكتب الأربعة، تلال مفرطة في الضآلة... وحتى يوم إحالته إلى المعاش لم تغير له مكتبه، واكتملت دورة التكدير يوم إحالته إلى المعاش عندما حمل الفرّاشون المكتب فتفتت بين أيديهم كالبسكويت.

ولكنه ليس عبد الصمد، عبد الصمد لم يكن له تاريخه وتفانيه، وعلى العموم لن يسمح لقطرة ماء أن

تكدر صفوه. وما أكثر المكدرين! يأتون ويتضخمون ثم يذهبون. فقط يتركون آثارهم التي يسعده أن يتصفحها منفردًا بين الحين والآخر كلُطَع التراب. شكاوى يعج بها دُرجه المغلق سلَّمها له رئيس الشئون القانونية "عرابين محبة" دون أن يحقق فيها. وقتها لم يكن يجرؤ أصلًا أن يحقق فيها... كيف والجميع يلحَسون نعله توددًا؟! وأسفل اللوح الزجاجي لمكتبه خط نجاحه مرسومًا: صورُه مع رؤساء المؤسسة بالمركز الرئيسي في مراحل مختلفة من عمره. يصافحهم وينظر إلى عدسة "الكاميرا". أوثانه... جميعهم أثنوا عليه. قالوا: "لولاك لضعنا" وحتى لو كان الإطراء خلف الأبواب المغلقة. وتركوه ليحصد الكراهية من الموظفين. فلا بد للنجاح من كبش ضحية. ودليل نجاحه.. ترمومتر حرارة كراهية الناس له.

الصورة الأولى على اليمين.. الرئيس الأول بسرواله الطويل المتدلي دائمًا أسفل خط البطن فيرفعه بحركة لا إرادية. سمَّاه بينه وبين نفسه "أبو القمصان"

الشخصية الأشهر في بلدته. شحاذ ظريف. لم يحبه. ولعل التسمية وجدت من يبلغها. كراهية متبادلة. ككبشين يتناطحان كلما التقيا. ورغم ذلك اعترف له ذات مرة. بصورة عَرَضية. وهو يوقع الأوراق في استراحته: "لا غنى عنك مثل الكائنات المفترسة".

الرئيس الثاني.. عصره الذهبي. الخجول الرابض في مكتبه. عيناه الحمراوان من رش "الفليت" في فضاء مكتبه المغلق. واحتساء فناجين القهوة المركزة. صاحب البصقة الشهيرة التي تلقاها أثناء مروره في المؤسسة ونُقل بعدها موصومًا بالعار.

الرئيس الثالث.. الماكر القصير الذي لم يتبسط في الكلام مع مدير كما تبسط معه. عرف نقاط ضعفه وجمع بينهما مشروع نسب. صفاء وابنه. لم يسمح للإشاعات عن ابنه بإنهاء المشروع. صعد في عصره صعودًا سريعًا وانفرد بغرفة مكتب جاءت في وقتها. انفراده أبعده عن رمي الكلام الجارح المتواري عن تجارته بفرج ابنته. كأنه لم يكن زواجًا على سنة الله

ورسوله، ليس تمامًا. اضطُر لدهان باب غرفة مكتبه مرتين عندما تجاوزت الكتابات الجبانة عليه حدها من الأدب.

بعد ذلك.. سلسلة طويلة من الصور الصامتة التي لا تنطق بالذكريات، ولم يعد إلا الاستسلام لشيخوخته الوظيفية، وإن احتاجوا لخبرته من وقت لآخر. الرئيس الرابع قالها له متملقًا ذات مرة بعد أن اخترع لهم صيغة قانونية لا غبار عليها لإنقاذ موقف لا يتذكره:

- يا خسارتك يا أستاذ يعقوب في العمل الميري! لو أنصفوك.. لأصبحت مفسرًا للقرآن.

شعشعت الكلمات في دماغه، ولكن انجرفت حلاوتها كما انجرفت مثيلاتها في قلب كالإسفنجة لا يشبع من الإطراء، والآن.. وضعوه هنا، بمنصب شرفي في الغرفة التي يقع سقفها أسفل دورة المياه، مع المُعيَّنين الجدد الذين يرونه عجوزًا ومزعجًا، تمامًا مثل قطرة الماء فوقه.

سيعتاد عليها، رغم العشوائية المزعجة لهبوطها، يظل متذكرًا إياها، ثم يجرفها التيار العادي لأفكار العمل وأحاديثه مع زائريه، حينئذ فقط كأنها تنتقم من تجاهله لها، تسقط، يغضب لأول وهلة، يبتسم كأنما صفعه أحد أحفاده الصغار. تكوَّن بينهما نوع من الألفة، أعجبه أن يروضها، يروض أحاسيسه لاستقبالها، قبل نهاية يوم العمل يزيح أوراقه بعيدًا عن مجال إصابتها، في صباح اليوم التالي يكون أول ما يتفحصه آثارها على الورق، يغذيها من خياله الذي طالت حباله مع أحبال وحدته، يتخيلها أحيانًا أيدي مبتورة الأصابع، أو بويضة تهاجمها حيوانات منوية، أو قطعة خبز تأكلها صغار أبي ذنيبة، ربما نجوم بحر... فكَّر عشرات المرات أن ينقل مكتبه بعيدًا عن مدى إصابتها، خاصة أنها لم تتوقف عن مفاجئته بين الحين والآخر بإصابة مباشرة، كأنها مرسلة لتعذبه، لكنه لم يتخذ القرار، يشعر أنه يُقيد إليها مع مرور الوقت مثل حلم لا تستطيع أن تهرب منه، يترك نفسه مسترسلًا في

التفكير: لعلها نوع من الإشارات. لغة غير مفهومة من مصدر أرقى منه. لعل الله يلخص له ذنوبه التي يجب أن يكفر عنها. الأيدي المبتورة تشير إلى محاولات النيل منه. منعتُه وانتقام الحاقدين الذي لم يصل إليه. أما البويضة فتذكره بابنته المتزوجة التي حرمها -رغم علمه- من الرجل الكامل والحياة الكاملة. أما قطعة الخبز فتشبه تهافت الصغار على تدميره الآن. كأنه صنم في بلدة من المؤمنين.

عندما وصل لتلك النتيجة بدأ يحترمها: يحترم إصرارها على النمو لساعات طويلة قبل أن تُحدِث على أوراقه فعلَها البالغ في الضآلة المتناهي في التأثير. تُفلِتُ من بين شفتيه رغما عنه عندما تصيبه إصابةٌ تزعجه: "برافو!" ويتخيل أنها تسمعه وتبتهج.

لم يعد ينساها. موجودة دائمًا في خلفية تفكيره. يشعر بها كما تشعر الأم بنبض جنينها دون أن تراه. يرفع رأسه ليطمئن عليها عندما تتأخر عن السقوط. تكونت عنده عادة: في كل الأماكن التي يذهب إليها

عندما يكون في البيت أو مكان غير مكتبه. يرفع رأسه لا إراديًا كأنه يتوقعها هناك. أليست دليلَ نقمة كما كانت سحابة سيدنا محمد دليل نبوة؟ فما المانع أن تتحرك معه إلى جميع الأسقف؟ منزلقًا في التفكير بهذه الطريقة توصل إلى أنها ربما كانت تطهره، وربما تتوقف ذات يوم، وبذلك يكون قد سدد ما عليه من آثام. ولكن حتى لو أمطرت السماء عليه حامضًا. الآن يعترف: "كنت كُرباجهم" وكل هذا الكلام عن عبقريته لم يكن إلا لأنه أوصل صفعاتهم إلى أقفية الناس، والآن ما عليه سوى أن يذهب مشيَّعًا باللعنات.

و حتى جائزته الأخيرة: التجديد، إسْوة بزملائه الذين سبقوه. وكل الكلام من خلف ظهره غير ذلك. يلملم يوميًا من أفواه المديرين وعودًا مجهضة. يتكلم مع نفسه خفية: "الآن وقد تبقت لي شهور يا كلاب يا آذان الغوغاء".

ومدفوعًا ذات صباح بقوة القصور الذاتي لكبريائه القديمة مستيقظًا بعزم جديد نادى على الفرَّاش.

وبمساعدة بسيطة من مرؤوسيه نقل المكتب. تعلل بحاجته إلى تيار الهواء بجانب النافذة تعليقًا مقتضبًا على دهشتهم من القرار المفاجئ. الآن لتتوقف اللعبة ولتصمت الإشارات إلى الأبد. لقد كفر..

في ظهيرة ذلك اليوم انفجرت ماسورة المياه فوق مكانه القديم مع سقوط جزء كبير من السقف بِدويٍّ هائل. رشاش الماء لم تصبه منه قطرة واحدة كما لم يصب منه بخدش واحد. تمت السيطرة على الموقف. وبعد أن ترسب رماد الحادث ظهرت دلالاته. قالوا له: "كيف عرفت وانتقلت في الوقت المناسب؟! لا بد أن فيك شيئًا لله". لم ينكر ولم يؤيد. دارت الحكاية في مكاتب المؤسسة. تشبعت بتفاصيل لم تحدث.

استدعاه المدير العام ذات يوم. وبعد حوار طويل ومسَلٍّ بعيدًا عن العمل.. طلب منه أن يدعو للمؤسسة؛ فأنت رجل مبارك. قال لنفسه بعد أن غادر المكتب المكيف: "ها قد بدأنا".

الحادث لم يغيره، كالمستيقظ من حلم، ذهبت السكرة، وعلى الأقل صار عنده شيءٌ ليتاجر به، الرجل الذي قامت المؤسسة على كتفيه ثم نفيتموه في دورة المياه حتى كاد يموت تحت الأنقاض.. بقيت لهفته القديمة للتجديد متيقظة الآذان للكلام الذي يتسرب عبر الحوائط، أعجبته الدهانات الجديدة وأدمن رائحتها، وعندما عرف داس على "فرملة" قلبه؛ ليمنع صعود الفرحة إلى سائر أعضائه، ولم يندهش والمدير العام يستدعيه مرة أخرى ليزف إليه الخبر السعيد.

## المتحول

في الحُلم دخلنا نبحث عن أشيائنا الضائعة. أنا وهي. وقبلها كنا نبحث في مصعد عند باب غرفة واسعة لا نرى آخرها. أشرت وقلت لها: هيا لنبحث هناك. فاستجابت وأتت معي، متتبعين حواف الغرفة بجانب الجدران التي كان منتصفها ساقطًا ولم يعد متبقياً منه إلا أسياخ حديدية. كأن قنبلة انتقت منتصف الغرفة لتنفجر فيه. بعد أن سارت خلفي خطوتين خائفتين اخبرتني أنها ستذهب من الجانب الآخر الأبعد والأكثر بروزًا فتلتقيني في الناحية الأخرى. عندما وصلت إلى نهاية الغرفة رأيت الفراغ في المنتصف وقد تحولت أبعاده إلى منضدة خشبية بطول الغرفة كلها. لم أستغرب ذلك لأني اعلم أني كنت أحلم.

لا اعرف ما الذي جعلني انظر اسفل المنضدة. رأيت أحذية. أنواع منها أكثر مما رأيت في حياتي كلها.

كل الألوان، على جنبها ومقلوبة وفي وضعها الصحيح، أحذية عادية وأحذية برقبة، أحذية متسخة بالطين وأحذية نظيفة، أحذية منفردة وأزواج كاملة منها، أسفل المنضدة يبدو مثل أسفل سرير بائعة هوى في أسطورة تحتم أن يهرب كل عشاقها على عجل حفاة واحدًا تلو الأخر حتى تشيخ.

انتبهت عندئذ أنني حافٍ، زحفت خلال الأحذية، بحثت كثيرًا، وكانت هي قد أتت ولم تزحف مثلي لتبحث لأنها كانت ترتدي حذاء، ولكنها كانت تصيح بى من وقت لآخر أنهم سيأتون وسيجدوننا وسيسخرون منا، ولم أكن قلقا مثل قلقها ذلك لأنني أعلم أنى كنت أحلم، وأنه في الحلم لابد وأن يأتوا عندما أجد حذائي، ولم تكن رفيقتي جزء من حلمي ولا أى حلم آخر ولا أمل لدي أن أكون جزء من حلم تحلمه، ولكن حلمي كان يستعملها كرفيقة، رفيقة ليس لها أن تتصرف كما تتصرف في حياتها الحقيقية، وإنما تتصرف كما تُملي عليها أفكاري .

أتوا. نساء ورجال أخذوا أماكنهم حول المنضدة وكان اقربهم إليَ عندما خرجت من متاهة الأحذية إمرأة لها عينان متفحصتان. حاولت أن أرتدى حذائي. حذاء كلارك لامع ذو نعل جاف كحدوة حصان أخذ يقرقع على البلاط وأنا أحاول أن أضعه في قدمي دون جدوى. أحشر أصبعي في الفراغ عند العقب وأشده على قدمي فيرفض ويظل كما هو. أقف وأضرب النعل بالأرض ليدخل في قدمي فلم يحدث إلا أنه لفت كل الأنظار إليَ. وكانت رفيقتي قد اختفت من شدة الإحراج. ربما انصرفت قبل أن يأتوا ولم انتبه. وربما لم أعد أملي عليها تصرفاتها لشدة إضطرابي فأختفت بالتبعية من حلم لا استطيع السيطرة عليه. وكانت المرأة تنظر لي بإصرار كأن هناك علاقة بين نظراتها والتمرد الغريب للحذاء في الدخول إلى قدمي. كنت أعلم أنهم يعلمون أن الحذاء حذائي ولكني لا أريد لفت الأنظار إليَ. لا أريد أن يعلموا أن الحذاء ليس على مقاسي رغم أنه ملكي.

لم يشتره لي أحد ولا حتى أبي، ولكنه يرفض الدخول في قدمي

- هل لديك حذاء مثلنا ؟

هكذا قالت لى المرأة المتفحصة، بدهشة ساخرة، ولم تكن تقصد أنه من الطبيعى أن أسير بدون حذاء، ربما تقصد نوعية الحذاء، وبرغم أنني كنت أعلم أن ذلك لا ينبغي ان يسيئني انفجرت في البكاء، في الحلم كنت أبكي ومن خلف عيناي المُسدلتان على عالم هواجسي كنت أبكي أيضا، وكنت أعلم أنني سأستيقظ الآن، أبدأ في سماع أصوات الواقع، أسمع صوتي، نصفه في الحلم ونصف آخر في الحقيقة، يكرر جملة واحدة، جزء منها بصدى تردده جدران الغرفة الواسعة بالحلم والجزء الآخر فى غرفتى الضيقة، مُنسابًا كغمغمات على وسادتي المبللة بالدموع

- لماذا لم آخذ الحذاء تحت إبطي وأرتديه في الخارج ؟

ولم يسمعني أحد. لا الموجودين في الغرفة الواسعة ولا زوجتي النائمة إلى جواري، ولم أشعر في حياتى بغربة مثلها إلا أنني أردت أن لا أستيقظ وأن أستمر في البكاء حتى يسمعني الجميع، هنا وهناك. في الحلم وفي الحقيقة..